الفصل الثالث

الاســـــــلام

فى مواجهة الايديولوجيات والفلسفات المعاصرة

نهتم فى هذه الدراسة التحليلية المقارنة بتوضيح موقع الاسلام من الايديولوجيات والفلسفات المعاصرة ليس فقط كعقيدة ايمانية ، وانمـــا أيضـــا كمنهل للقيم الأخلاقية وكأسلوب للحياة • وهناك ملاحظة أولية نعتقد أن لها مغزى عميقا فى الصراع الفكرى الدائر اليوم وهى ان المبادىء والقيم الاسلامية فى خطوطها العريضة لا تزال تحتفظ بمصداقيتها وقدرتها على مواجهة المنظومات الفكرية المعاصرة • ومن بين كل الفلســفات والعقائد والايديولوجيات التى عرفتها البشرية سواء منها الغنوصية أو اليونانية أو تلك التى تفرعت عنها حتى اليوم ، ينفرد الاسلام بقدرته على الاستمرار والاقناع الحر لمئات الملايين من البشر مع تقديم الحلول المنطقية للمشاكل الناجمة عن ندرة الموارد ، والافتقار الى عدالة توزيع عائد العملية الانتاجية ، والاشباع المتوازن لحاجات الانسان الروحية والمادية •

وسنناقش فى هذه الدراسة أهم الأيديولوجيات والفلسفات المعاصرة ذات الصلة الوثيقة بالاطروحات الايمانية والحياتية التى ركز عليها الاسلام ، مع التمهيد لذلك بتعريف مختصر لكلمة الأيديولوجية •

الأيديولوجية اصطلاح له معان كثيرة ، تختلف حوله المدارس الفكرية باختلاف مواقفها من الانسان والحياة والمجتمع • وسنختار من هــذه التعريفات أكثرها حيادا (١) وهو التعريف الذى يبين أن الأيديولوجية هى

---

(١) نشر النص الأصلى لهذه الدراسة فى : مصر المعاصرة (مجلة الجمعية المصرية للاقتصـــاد السياسى والاحصاء والتشريع) ، العـــدد ٣٨٦ ، اكتوبر ١٩٨١ ، ص ٤٨٥ — ٥٢٤ .

منظومة من الأفكار تتكون من شقين : الأول يعبر عن أوصاف صادقة للواقع الحى ، أى أنه يتناول ما هو كائن فعلا ، بينما يمثل الثانى الجانب المعيارى ، حيث يعبر عن قيم أو معتقدات حول ما هو حق وخير وجمال ، أى يتناول ما يجب أن يكون ، بشرط أن تكون المعتقدات التى تتكون منها المنظومة الفكرية متماسكة ومترابطة منطقيا • وتشترك الأيديولوجية مع المذهب فى سمة هامة هى الحث على العمل والنشاط لنشر التعاليم والدفاع عنها •

أولا — الفلسفات الليبرالية والدين

استخدم لفظ ليبرالية فى القرن الثامن عشر ، وهى تعبر بوجه عام عن المبادىء والحقائق التى تمخضت عنها الثورات والمواثيق السياسية فى انجلترا (١٢١٥) وأمريكا (١٧٧٦) وفرنسا (١٧٨٩) ثم الثورة الصناعية•

والليبرالية ، شأنها شأن أية أيديولوجية أخرى ، مرت بمراحل متعددة نكتفى منها بالاشارة الى مرحلتها المعاصرة ، حيث صارت مرادفة للديمقراطية أى الأخذ بحق الاقتراع العام والمؤسسات التمثيلية والهيئات المسئولة أمام الناخبين •

وباختصار يمكن النظر الى الليبرالية على أنها تجسيد لكل ما تعنيه التقاليد السياسية الغربية (٣) ، بغض النظر طبعا عن مدى التقيد بها من جانب هذه الدولة أو تلك •

١ — التراث المسيحى لدى القديس أوغسطين ، دانتى ، ليبنيتز ، باركلى :

(أ) تجدر الاشارة فى البداية الى التراث الكبير الذى تركته المسيحية للفكر السياسى الغربى عموما • فقد عبر القديس اوغسطين (٣٥٤ — ٤٣٠م) فى كتابه المسمى « مدينة الله » عن اعتقاده بأن تاريخ البشرية هو وليد الصراع بين المجتمع الدنيوى « مملكة الشيطان » وبين المجتمع الدينى « مملكة المسيح » التى يسميها أيضا « مدينة الله » وتنبأ بأن هذه الأخيرة

هى التى ستنتصر فى النهاية ، لأنها هى الدائمة ، ولا يمكن أن يوجد سلام الا فى ظلهـــا •

تردد رأى آخر فىأواخر العصر الوسيط للفيلسوف الايطالى دانتى Dante (١٢٦٥ — ١٣٢١ م) فى كتابه De Monarchia « فى الملكية » ، تناول فيه دور الدين فى التاريخ ، وشرح تصوره للعلاقة بين العقيدة ونظام الحكم فى العالم ، وان كان هدفه النهائى من كتاباته هو مؤازرة الســلطة الزمنية التى يمثلها الامبراطور فى مواجهة البابا • ويرى دانتى أنه اذا كان الله واحدا فان البشرية أيضا يجب أن تتوحد فى ظل حكم ملك أو أمير واحد لتحقيق الهدف المزدوج من الخلق ، وهو السعادة فى الحياة الدنيا ثم السعادة الأبدية المتمثلة فى مشاهدة الخالق • إن الوفاق محمود ، لأنه تعبير عن الحركة المتناسقة لعدة ارادات ولهذا فان معيشة البشرية فى وفاق ومودة وخضوعها لأمير واحـــد يجعلها تتفق مع القصد الالهى (٣) •

رغم ذلك التراث فان تأثير الدين على الفكر والسلوك عنـــد العلماء والفلاسفة والساسة أخذ يتضاءل ، وخاصة منذ بداية النظام الرأسمالى ، نتيجة للتجربة المريرة التى خاضتها الشعوب الأوربية فى صراعها ضد طغيان الكنيسة الكاثوليكية فى عصر الاقطاع ، حيث اشتركت فى استغلال رقيق الأرض وقاومت حركات الفكر والتقدم والاكتشافات العلمية •

لهذا لم تســتطيع الأيديولوجية الليبرالية تفادى الاصــطدام بتلك المؤسسة العتيدة ، وخاصة فى البداية ، عندما كان النظام البرجوازى لايزال يصارع الاقطاع المتحالف مع الكنيسة ، ليشق له طريقا الى الوجود ويؤمن مصالح الطبقة الوسطى الجديدة ونظم الحكم السياسية المتمثلة فى الدول القومية على أنقاض القيود والتقاليد الاقطاعية السابقة •

وقد استمرت موجة العداء الشديد لرجال الدين والكنيسة وخصوصا أثناء الثورة الفرنسية مما أدى الى انكماش الكنيسة كمؤسسة ، وتضاؤل

نفوذها الكبير السابق فى المجالين السياسى والاقتصادى • ولم تخفف الأيديولوجية الليبرالية من عدائها لرجال الدين والكنيسة الا بعد ظهور الأيديولوجية الماركسية كقوة سياسية واجتماعية منافسة ، مما حدا بها الى أن تعيد اقامة الجسور مع الكنيسة ، ليس اقتناعا برسالتها أو عودة الى حظيرة الايمان بقدر ما كانت محاولة لجمع الصفوف أمام الأيديولوجية الجديدة الصاعدة التى شكلت خطرا كبيرا على مفاهيم النظام الرأسمالى ومؤسساته •

(ب) هذا لا ينفى استمرار ظهور بعض الفلسفات الملتزمة بالعقيدة الدينية فى المجتمع الرأسمالى الليبرالى وخاصة فى العصر الحديث ، وان كانت تتشابه فى بعض السمات العامة كغلبة الطابع الفلسفى الأكاديمى عليها وقلة انتشارها وضعف تأثيرها • نشير فى هذا الصدد الى نموذجين(٤) هما المذهب الروحى الحديث للفيلسوف الألمانى ليبنتز Leibniz (١٦٤٦ — ١٧١٦) ، وفلسفة اللامادية للفيلسوف والأسقف الانجليزى باركلى Berkeley (١٦٨٥ — ١٧٥٣) • وقد هاجم ليبنتز مادية ديموقريطوس ومفهومه للوجود ، وقدم تفسيره هو الذى يتلخص فى أن الموجودات تتألف من ذرات روحية أسماها مونادات Monades يوجدها الخالق فتصدر عنه كما يصدر النور عن الشمس ، وهى مدركة ويتفاوت ادراكها قوة وضعفا تبعا لموقعها من سلم الترقى من الجماد الى الحيوان الى الانسان الى الاله ويستخلص ليبنتز من ذلك أن المادة فى كل صورها وكذلك العالم الخارجى ليس لأيهما وجود بذاته •

فى النموذج الآخر ، اعتبر باركلى ان العالم الخارجى هو مجرد أفكار توجد فى العقل ، وليست الأجسام الا تصورات الروح ، وبالتالى فان المادة هى مجرد فكرة • وحتى رؤيتنا للمادة ليست دليلا على وجودها ، لأن الأشياء المرئية والمسموعة والمتذوقة وغيرها من المحسوسات ليست الا صورا صورها العقل • وبذلك يكون باركلى قد قلب الواقع رأسا على عقب ، وأصبحت

اللامادية فى مفهومه هى تحول المعانى الى أشـياء وليس تحـول الأشياء الى معـان •

الا أن باركلى واجه صعوبة كبيرة فى تفنيد الحجة المادية التى تذهب الى أن الناس متفقون فى المعرفة وأن هذا لا يحدث الا اذا كان للمحسوسات وجود مستقل هو أصل المعرفة وسببها • وللتغلب على هذه الصعوبة رد باركلى بأن الله هو الذى نسق مدركاتنا وأفكارنا بعنايته وحكمته ، وهذا الاتساق فى الأفكار أدل على وجود الله من المعجزات • أى أن باركلى أنكر تماما عالم المحسوسات بحجة محاولة اثبات وجود عالم واحد فقط هو عالم الروح ، وأيضا لهدم المادية وتفادى القول بوجود المادة كمؤثر فى نظام الأشـياء •

٢ ــ الردة فى فلسفات الوضعية والوضعية المنطقية والبراجماتية والوجودية :

ظهرت هذه الفلسفات فى اطار المجتمع الليبرالى الغربى ، وكان لها مواقف سلبية بوجه عام من العقيدة • وسنقتصر هنا على تحليل مواقفها بايجاز من قضايا الدين والأخلاق • تنبع أهمية هذه الفلسفات من سيطرتها بدرجة كبيرة على كافة أوجه الحياة والفكر فى الدول الرأسمالية الغربية ، وهى بالتالى تتبادل التأثير مع التوجهات الأيديولوجية وأنماط السـلوك والسياسات الداخلية والخارجية لتلك الدول • ورغم ذلك قد نصادف ايمانا دينيا عميقا فى المناطق الريفية فى تلك الدول أو لدى بعض الأفراد والزعماء • لكن ذلك يظل استثناء لا يمكن القياس عليه • والأهم من ذلك أن قضايا الايمان والأخلاق توقفت عن لعب أى دور حاسم لدى المراكز الحساسة لصـنع القـرار •

(أ) الوضـــعية : Positivism

للتعريف بموقف تلك الفلسفة من الدين نقول أن المفـكر الفرنسى أوغست كونت (August Comte ١٧٩٨ ــ ١٨٥٧) أطلق عليها هـذا

الاسم باعتبار أن « وضع » الأمور فى عالم الواقع هو وحده مجال البحث الفلسفى • والوضعية هى أحـد الاتجاهات التجريبية التى ترد المعرفة الى التجربة وترفض ارجاعها الى نور العقـل المحض أو الحدس المستقل عن التجربة • وهى تنكر على الفلسفات الميتافيزيقية تركيزها على مشاكل الوجـود ، وتعتبر أن العـلوم التى تعتمـد على المناهج التجريبية وتدرس الواقـع المحسوس قـد استوعبت مجـال تلك الفلسـفات وأنها تستطيع التوصل الى حلول لشتى المشاكل الانسانية • ويشرح كونت هـدفه من الوضعية بأنه خلق فلسفة للعلوم كأساس لايمان اجتماعى جديد ، أى وضع نظرية اجتماعية عن طريق نظرية علمية • هذه النظرية الاجتماعية هى أقرب الى أن تكون دينا انسانيا أو دينا يتخذ من الانسانية الها • ويروج المتأثرون بالوضعية لمقولة « انتهاء عصر الأيديولوجيات » ظنا منهم أن الوضعية لم تحـل فقط محـل الدين والأيديولوجيات الأخرى ، وانما أصـبحت هى الأيديولوجية الأخيرة والوحيدة التى تتمتع بالطابع العلمى (٥) •

تقوم الوضعية على فكرة أساسية هى ما يسمى « بقانون الحالات الثلاث » الذى افترض فيه كونت أن البشرية مرت بمراحل ثلاث هى : اللاهوتية والميتافيزيقية والوضعية : « الأولى هى نقطة الانطلاق الضرورية للفهم البشرى والثالثة هى حالته الثابتة والنهائية ، أما الثانية فهى مجرد مرحلة انتقالية (٦) •

وسنقتصر على استعراض المرحلة الثالثة وهى الوضعية التى قصد بها كونت ذلك المنهج الذى يقدم تفسيرا علميا لجميع الظواهر الطبيعية والانسانية مع استبعاد الفروض الخيالية والميتافيزيقية والارادات العليا واستبدالها بقوانين دقيقة ثابتة يتم التوصـل اليها عن طريق أسـلوب الملاحظة الحية والوصف والقياس والتفسير وصـياغة الفروض • أى أن العقل فى هذه المرحلة الأخيرة يتخلى عن بحثه عن المفاهيم المطلقة وعن أصل الكون ومسيرة الظواهر وعللها ، وينهمك بدلا من ذلك فى دراسة قوانين تلك الظواهر بمعنى استقصاء علاقاتها الثابتة فى التعاقب والتماثل • ويدعى

كونت أن هذه الحالة الأخيرة تمهد لوضع فلسفة علمية يمكن أن تتخذ أساسا للدين والأخلاق •

ربط كونت بين تقسيمه التعسفى لتاريخ البشرية وبين الأوضاع الاجتماعية المضطربة التى عاصرها ، فوجه نقدا للمفكرين من أمثال سان سيمون الذين كانوا يرون التركيز على المشاكل الاقتصادية كوسيلة لاجراء الاصلاحات الاجتماعية ، وهو خلافا لذلك رأى أن الاستقرار الاجتماعى يتوقف على الاستقرار الأخلاقى الذى يتوقف بدوره على وجود تجانس فكرى يمكن تحقيقه عن طريق تسليم الكافة بعقائد مشتركة • لهذا لم يحبذ اجراء أية اصلاحات اجتماعية قبل اصلاح الدين والأخلاق أولا اذ يقول : « إننى أعد كل مناقشة تدور حول النظام الاجتماعى مناقشة لا طائل تحتها مادام المجتمع لم ينظم تنظيما روحيا » (٧) •

لكن أى تنظيم روحى أو أى دين يقصد ؟ إن أية عقيدة لا تستطيع فى رأيه أن تقوم بهذه المهمة • فالمذهب الكاثوليكى مثلا لا يستطيع تحقيق التجانس الفكرى المطلوب لاضمحلاله نتيجة الميراث الثقيل للكنيسة وتحالفها مع الاقطاع ، مما دى الى تقليص سلطاتها بعد الثورة الفرنسية • بالمثل ، فان المذهب الفلسفى الذى يمكن أن يسد ذلك الفراغ الروحى لا يمكن أن يقوم على التفكير القياسى المنطقى للاغريق الذى تخطته علوم العصر • ولما كان كونت يعتبر الوضعية خلاصة للحقائق التى تتوصل اليها العلوم فانه ظن امكان اتخاذها كأساس لمذهب جديد يملأ الفراغ الروحى • لكن مشكلته هى أن الالحاد الذى بدأ به فلسفته الوضعية انتهى به فى أواخر أيامه الى ادعاء النبوة وأنه « النبى الحق » (٨) •

يمكن ايجاز رأيه بأن فلسفته لن تكون غاية فى حد ذاتها ، وانما وسيلة لاعادة التجانس الفكرى بوضع ديانة جديدة تتميز بعقائد واضحة يمكن البرهنة عليها من جهة ، كما أنها لا تتطلب من جهة أخرى الايمان بشىء يتناقض مع العقل • إن الاصلاح الاجتماعى متعذر بدون القضاء على

الفوضى المترتبة على الأخـذ بمنهجين متناقضـين هما المنهج الوضـعى (ويسميه العلمى) والمنهج اللاهوتى أو الميتافيزيقى • فمن جهة يسـلم الناس بخضوع الظواهر الطبيعية لقوانين صارمة ، بينما ينكرون من جهة أخرى سريان تلك القوانين على الظواهر الاجتماعية • إن الانسجام الفكرى التام لن يتحقق من وجهة نظره الا بتطبيق المنهج الوضعى فى جميع العلوم الطبيعية والاجتماعية • عندئذ يمكن وضع فلسفة علمية تستبعد الفكر اللاهوتى والميتافيزيقى •

هـذا هو البديل الذى تطرحه الوضعية فى حقل الايمان ، وهـذا هو موقفها من المسيحية (كمثـال على لأديان السماوية) مـع التركيز على تناقضـها مع امكانية البرهنة عليهـا بالتجربة المحسـوسة • أى عـدم الاعتراف بأى شىء أو قوة مطـلقة لا يمكن اثبات وجـودها بالأساليب التجريبية الحسـية •

ورغم أننا سنقدم فيما بعد تعقيبا شاملا على الفلسفات الليبرالية الأربع التى سنتناولها هنا ، الا أننا نود أن نوجه النظر الى التعميمات المخلة التى انتهى اليها أوجست كونت وخاصة تقسيمه التعسفى لتاريخ البشرية الى مراحل دون اثبات صحتها سواء بالنسبة لترتيبها الزمنى أو نوعيـة الظروف والمشاكل المميزة لكل مرحلة • من جهة أخرى ، وهى الأهم ، فان آراءه تتناقض تماما مع الأطروحات الاسلامية ليس فقط فيمـا يتعـلق بالروحانيات وانما أيضا بالنسبة للواقع المادى للحيـاة • ولا يخفى أن الاسلام دين علمى يبحث فى الحقائق ويحض على إعمار الكون والبحث فى الأشياء والظواهر وتفسيرها بحسب طبائعها ونوعية العـلاقات القائمـة بينها وتأثير بعضها فى بعض ، وفى نفس الوقت يرد كل شىء الى الخالق الصـانع الحـكيم •

(ب) الوضعية المنطقية : Logical Positivism

تتخذ تلك الفلسفة موقفا مشابها من الميتافيزيقيا ومن كل ما هو غير

محسوس اذ تعاطفت مع آراء دافيد هيوم وأوغست كونت التى كانت ترد الأفكار والمشاعر الى الانطباعات الحسية وتعتبر الحس أداة الادراك الوحيدة • أى انه اذا أمكن ارجاع الفكرة الى أصلها الحسى كانت صادقة ، والا فهى وهم واختلاق من العقل • لهذا وصف الوضعيون المناطقة فلسفات أفلاطون وأرسطو وسبينوزا وهيجل بأنها فلسفات تأملية • ويعتبر رودولف كارناب Rudolf Carnap (١٨٩١ — ١٩٧٠) من أبرز رواد هذه المدرسة •

إن الفلسفة من وجهة نظرهم ما هى الا الدراسة المنطقية للمفاهيم والرموز أو هى تحليل اللغة وتوضيح المعرفة التجريبية بترجمتها الى قضايا تنصب على المضامين الحسية ، لأنهم يرون أن اللغة تشتمل على ألفاظ خادعة ليس لها معنى ، وان كانت تثير عند من يسمونهم بالفلاسفة التأمليين مشاكل لا وجود لها الا فى أذهانهم • وتتحول الفلسفة طبقا لهذه المدرسة الى مجرد منهج للبحث هدفه التحليل المنطقى للغة المستخدمة فى الحياة اليومية أو تلك التى يستعملها العلماء فى بحوثهم بهدف ازالة اللبس والغموض الذى يعترى الأفكار (٩) •

لكل ذلك تعتبر الوضعية المنطقية تيارا متطرفا من الوضعية السابقة يذهب أنصاره الى انكار كل موجود الا اذا كان محسوسا • فليس هناك فكر ولا تفكير ولا قوة مطلقة ، وانما ألفاظ وجمل • وكل لفظ من تلك الألفاظ لا يعبر عن شىء محسوس يمكن التثبت منه بالتجربة لا يحمل معنى يوصف بالصدق أو الكذب • بعبارة أخرى ، استبعد الوضعيون المناطقة الميتافيزيقا والعلوم المعيارية من مجال البحث العلمى استنادا الى مبدأ التحقق Principle of Verification الذى يقول أن القضية التى يمكن التحقق منها بالرجوع الى الواقع هى وحدها ذات معنى • وانطلاقا من ذلك ، أصروا على أن الفلسفة لا شأن لها بالحديث عن العالم أو

الطبيعة أو العقل أو الحق أو المطلق أو ما وراء الطبيعة ، وانما حسبها أن تحصر نفسها فى « الكلام » تحلله وتفرغه وتجرده مقتصرة على تناول صور التركيب اللفظى وما ينشـــأ فيها من علاقات •

أثارت هذه المقولات كثيرا من النقد للوضعية المنطقية وخاصة من جانب أنصـــار الفلسفة اليونانية (يتفق معهم فى ذلك أصحاب العقائد الايمانية) الذين سلموا بامكان اتخاذ الخبرة الحسية أداة للمعرفة الصادقة ، ولكنهم شددوا فى نفس الوقت على وجود عالم من الحقائق وراء العالم المحسوس يتعـــذر ادراكه بغير العقل • لهذا اتهمت الوضـــعية المنطقية بالتعسف والتعصب • أما التعسف فبسبب افتقارها الى دليل يثبت أن الحس أداة وحيدة لادراك الحقائق ومعيار أقصى لاختبار العبارات • كما يبدو التعصب فى الغرور الذى استبد بالوضعيين المناطقة ، فأنكروا دور العقل وطالبوا الباحثين بعدم التفكير فى مصير الانســـان وطبيعة النفس البشرية ووجود الألوهية ، والا خرجوا من نطاق العلم وتحولوا الى شعراء وفنانين أو عابثين يظنون الهذر كلاما يحمل معنى • نستخلص من ذلك أن الوضعية المنطقية ترفض أساسا البحث فى أية قيم روحية أو أخلاقية أو ما شابهها من ألفاظ وذلك لتعذر اثبات صوابها أو خطئها فى حدود الخبرة الحسية فهى كلها من وجهة نظر تلك الفلسفة عبارات غير ذات معنى •

واذا كان لنا من تعليق على ذلك التعسف والتعصب اللذين وصمت بها الوضعية المنطقية ، فاننا نستطيع أن نلاحظ بجلاء ـــ سواء من خبرتنا الشخصية أو وفقا لما ذهبت اليه فلسفات أخرى أكثر عقلانية ـــ خطـــورة التعميم الذى انزلقت اليه الوضعية المنطقية • فمثلا ، ليس لكل الألفاظ مدلولات مادية ملموسة ، كما أن هناك أشياء وظواهر لا يمكن انكارها أو تجاهلها فى ذات الانسان وفى الكون رغم عجزنا عن ادراكها بحواسنا • رغم ذلك ، فاننا نستطيع أن نســـتدل على وجودها استدلالا صحيحا كما هو الحال بالنسبة للروح والنفس البشرية والقيم الخلقية ، بل وقبل كل شىء

وجود الله سبحانه وتعالى خالق كل شيء وان كان ليس كمثله شيء ، لا تدركه الأبصار وهو السميع البصير •

(ج) البراجماتية : Pragmatism

الفلسفة البراجماتية (أى العملية) تعنى أساسا توجيه العقل الى العمل دون النظر ، حيث ينصرف العقل عن التفكير فى المبادىء والأوليات الى البحث فى النتائج والغايات • وتنظر البراجماتية الى المعرفة كأداة للعمل المنتج وتضع معيارا عمليا للتحقق من صدق أية فكرة يتجلى فى قياس مدى قدرتها على اثبات نفعها بحيث يصير المعيار هو المنفعة وليس هو حكم العقل • أى تكون المنفعة هى المحك الوحيد لصدق الأحكام العقلية وصواب الأفكار •

ومن بين كل فلاسفة البراجماتية (التى ظهرت فى الولايات المتحدة فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين) ، يعتبر وليم جيمس William James (١٨٤٢ — ١٩١٠) أكثرهم حسما فى تحديد موقفه من الدين • فقد اعتبر أن المنهج البراجماتى هو أولا وقبل كل شيء منهج لحل الخلافات الميتافيزيقية التى لولاه لظلت بلا حل • وبالتالى فان مهمته هى محاولة تفسير كل فكرة باستقصاء نتائجها العملية (١٠) • ظن جيمس أن الفكرة الصادقة هى تلك التى تؤدى الى النجاح فى الحياة ، وأن الاعتقاد أو الدين الصحيح هو الذى ينتهى الى تحقيق أغراض نافعة فى دنيا الواقع • يترتب على ذلك أن الأفكار والمعتقدات لا تطلب لذاتها وحدها ، وانما كوسائل لتحقيق أغراض فى دنيا الواقع •

فى مجال الأخلاق ، يعتبر السلوك الانسانى فاضلا متى حقق نفعا للانسان • وبذلك يصبح معيار الصواب والخطأ هو القيمة المنصرفة أو الفورية فى دنيا الواقع وينتفى وجود الحق فى ذاته بعيدا عن ظروفه • أى يصبح الحق كالسلعة تقدر قيمتها بثمنها الذى يدفع فيها فعلا فى السوق •

لشرح موقف البراجماتية على نحو أكثر تحديدا نلاحظ أنها لا تؤمن بوجود الله تعالى كموقف مبدئى وانما تبدى استعدادها للاعتراف بصدق العقيدة الدينية اذا ترتبت عليها فوائد فى واقع الحياة اليومى • أى أنها تعلق اعترافها على ظهور النتائج العملية للدين والتأكد من قيمته المنصرفة •

يعترف جيمس بذلك فيقول : « أخشى أن تكون محاضراتى السابقة — التى اقتصرت على نواحى انسانية وبشرية — قد تركت لدى الكثير منكم انطباعا بأن البراجماتية تعنى من الناحية المنهجية الابتعاد عما هو فوق البشر (الخالق) • لقد أظهرت فى الواقع احتراما قليلا ازاء المطلق ••• ومن وجهة نظر المبادىء البراجماتية فانه اذا كان فرض وجود الله يلعب دورا مرضيا بأوسع معانى الكلمة فانه يكون فرضا صحيحا »(١١) • يعزو برتراند راسل (١٢) Bertrand Russel هذا الموقف الذى اتخذه ويليام جيمس الى تأثره بمثالية باركلى مع معاناته من الشك فى وجود الخالق مما دفعه الى احلال الايمان بالله محل الله نفسه يا للايمان من فوائد نفعية •

يتضح الموقف الخطر من الايمان الذى تتخذه هذه الفلسفة الأمريكية من تلاعبها بذلك الموضوع الحساس ورغبتها فى تسخير العقيدة لأهداف سياسية • فالمشكلة لديها ليست الايمان بالخالق أو بدين معين ، وانما هى ضرورة الانتظار حتى يتضح أى الأديان أقدر على أن يلعب دورا أحسن فى المستقبل (من وجهة نظرها طبعا) • ويشرح جيمس رأيه : فيقول : « يجب على البراجماتية أن تؤجل اعطاء اجابة جامدة لأننا لا نعلم بعد بشكل يقينى أى أنواع الدين يمكن أن يلعب دورا أحسن على المدى البعيد » (١٣) •

ان اثبات مدى تناقض البراجماتية مع الاسلام يحتاج الى بحث كامل مستقل • لكن من واقع ما استعرضناه أعلاه من مواقف وآراء فلاسفتها نكتفى هنا بمثال يمكن لأى انسان سوى أن يدرك مغزاه • فقد ذكرنا أعلاه أن المعيار الذى تأخذ به البراجماتية هو المنفعة بصفتها المحك الوحيد

لصدق المبادىء والأحكام وصواب الأفكار • ولكن كما نعلم من تجربتنا الذاتية ، فان ما قد يكون نافعا لفرد ما قد لا يكون كذلك بالنسبة لفرد آخر • بمعنى أنه سيكون هناك أكثر من معيار للحكم على صدق وصواب السلوك والأفكار والمبادىء والقيم • يختلف الاسلام عن ذلك اختلافا جذريا لأنه أرسى منذ البداية مجموعة محددة من المعايير الفاضلة ليستخدمها البشر كافة فى كل زمان ومكان بصفتها قيما عليا مطلقة ، تنبثق من قيم روحية سامية موحى بها من الله سبحانه وتعالى ، الهادى لعباده لما هو أقوم ، والأدرى بما يحقق المنفعة لهم ، ويرعى مصالحهم فى الدنيا والآخرة •

(د) الوجودية : Existentialism

تتخذ معظم تيارات تلك الفلسفة مواقف متقاربة من حيث انكار العقل والخلق والخالق ، والمناداة بفكرة العدم ، وعدم التماس الأمن الحقيقى للفكر والعمل فى الدين ••• الخ • ويحسن التذكير بالظروف الخاصة التى ولدت فيها تيارات الوجودية لأننا لا نستطيع الفصل بين نغمات الحزن والضجر والخوف والقلق والضياع التى تتسم بها بعض الفلسفات الوجودية ، وبين الظروف الصعبة التى مرت بالعالم الغربى منذ الحرب العالمية الأولى والتأثيرات الضارة الناتجة عن ذلك وخاصة فى ألمانيا بعد هزيمتها فى تلك الحرب ثم فى فرنسا بعد هزيمتها فى الحرب العالمية الثانية •

مهد كل ذلك السبيل لظهور الفلسفات القائلة باللامعقولية الشاملة وانتشار فكرة العدم بعد انكار العقل وانكار وجود الله تعالى • فوجودية هايدجر Heidgger ومذاهب كامى وباتاى وسارتر Sartre ترجع فى أصلها الى ذلك التيار المروج لفكرة اللامعقول ، وكلها تجعل للقلق واليأس شأنا كبيرا وترسم ملامح حقبة معذبة تنعكس فى اهتمامات مريضة « بالمشاعر القاتمة ، وببشر غير سوى ، وبرجال يعيشون فى ظروف السرية ، ورجال أصبحوا حشرات (١٤) » •

ويندر أن تتشبع فلسفة معاصرة بكل هذا القدر من الكآبة مثلما نجد فى الوجودية • فهذا مارتن هايدجر من كبار فلاسفتها يرى أن الحياة الحقة تكون فى اليأس • بينما ذهب البير كامى خطوة أبعد اذ أنه رغم المعانى التى قصدها من الفقرة التى سنوردها فيما يلى فاننا لا نستطيع التغاضى عن نغمتها التى تربطهـا بالتيـار الوجودى العـام • يقول كامى فى روايته أسطورة سيسيف :

« أنه ليس ثمة سوى مشكلة فلسفية واحدة يمكن أن تعد جدية بحق وتلك هى مشكلة الانتحار • ولو استطعنا أن نحكم ما اذا كانت الحياة جديرة بأى تعاش أم لا ، فقد أجبنا على المشكلة الرئيسية فى الفلسفة[١٥] »•

وخلافا للفلسفات الثلاث السابقة ، ليس هناك تعريف متفق عليه للوجودية وان كان من الممكن تمييز ثلاثة تيارات فيها [١٦] سنحاول أن نستخلص منها ما قد يكون له علاقة بموضوعنا • التيار الأول يمثله المفكر الدانمركى ومؤسس تلك المدرسة سورين كيركغارد (١٨١٣ — ١٨٥٥) ، وكـارل ياسـبرز ، وجـابرييل مارسيل • يرى هؤلاء أن النظـر فى الوجود يقتضى انكار الفلسفة باعتبارها مذهبـا ، ذلك أن الفلسـفة الوجودية ما هى الا « تحليل الوجود » من حيث أخص ما فيه من فردية وعينية • أما ما يتبقى بعد ذلك وخاصة التأمل الميتافيزيقى فهو لا يعدو أن يكون سوى شفرة قيمتها الوجودية ليست لها سوى علاقة رمزية يرون أنها فضول زائد عن الحاجة •

يضم التيار الثانى فلاسفة مثل مارتن هايدجر (١٨٨٩ — ١٩٧٦) ، وجان بول سارتر (١٩٠٥ — ١٩٧٨) • هؤلاء يرون أن الوجودية يجب أن تقتصر على التحليـل الوجـودى الذى يريدون اسـتخدامه ليقيموا عليه فلسفة وجـود أو علم وجود • أما التيار الثالث فيعد الى حد ما دخيلا على المنطلقات الأساسية لتلك الفلسفة ، ولا يربطه بالوجودية الا الزعم

بأن الوجود والعالم عبث سخيف فى جوهره وهو ما عبر عنه البير كامى (١٩١٣ — ١٩٦٠) وباتاى •

ونتيجة للافتقار الى تعريف متفق عليه للوجودية كما ذكرنا ، فان التعريفات المأثورة لها جاءت من قبل دارسيها والمعلقين عليها الذين عرفها بعضهم بأنها : « التصميم المشترك على اتخاذ نقطة البداية من تحليل التجربة العينية المعاشة من حيث تناول الانسان نفسه بشكل مباشر بدلا من مجرد اتخاذه نقطة للوصول ، وعدم اللحاق به الا بعد بحث يبدأ من طريق مجرد •••• يبدأ بالله والوجود والعالم والمجتمع وقوانين الطبيعة والحياة » • ويعرفها آخرون بأنها تنحصر فى « تأكيد أن الوجود عبارة عن وضع خالص Position Pure ليس عبارة عن كمال للماهية • أى أن الوجود سابق على الماهية » • (١٧) (والماهية كما هو معروف هى كنه وخصائص الشىء) •

ويتخذ سارتر من مدى أسبقية أحدهما على الآخر منطلقا ليفرق بين الالحاد الفلسفى الذى عرفه القرن الثامن عشر وبين مفهومه للوجودية • وبداية نوضح أن سارتر يقر بوجود تيار كاثوليكى بين الوجوديين يمثله ياسبرز ومارسيل بنيما الأغلبية ملحدة وخاصة الألمانى هايدجر وسارتر نفسه وبقية الوجوديين الفرنسيين • يقول ساترر : « إن الوجودية الملحدة التى أمثلها تعلن بقدر أكبر من الترابط أنه اذا كان الله غير موجود فان هناك على الأقل كائن يسبق وجوده ماهيته ••• هذا الكائن هو الانسان أو كما يسميه هايدجر الحقيقة الانسانية (١٨) » •

الشىء الوحيد الذى له معنى اذن هو الوجود الذى يفهم منه الوجود الشخصى الفردى لا « أنا » ، أنا كما أبدو لنفسى • وقد تعرضت الوجودية بسبب كل تلك المقولات الى أوجه نقد كثيرة منها أن هذه الذاتية تؤدى الى انقلاب الفلسفة كلها الى أخلاقية فردية ونفسية ذاتية ، وتفسر هذه الأخيرة بروح الأنانية • هذا الاغراق فى الفردية على حساب

مصالح المجتمع لم يؤد بالانسان الى تمتعه بحريته التى بشرت بها الوجودية• وانما انتهت دراستها الى أن حياته تزخر بالضيق وتنتهى بالموت والعدم فكانت بذلك قصة هزيمة ويأس وتشاؤم • ويعلق الفيلسوف الفرنسى اميل برييه على كتاب سارتر « فى الوجود والعدم » بأنه « رغم ما يتضمنه من التحليل الدقيق فانه ينطوى على ألوان من خيبة الرجاء يصادفها الفيلسوف فى بحثه عن الوجود (١٩) » •

يمكن فهم مقولة اللامعقول من شرح سارتر لمعنى الوجود حيث ضرب مثلا برجل يجلس فى حديقة ثم يتعلق بصره بوردة فينصرف عن بقية الحديقة، ثم لا يلبث أن يحس تأثير هذه الوردة فى نفسه وهو منصرف عن رؤيتها • وبالتدريج يغيب عن كل شىء ويغرق فى دوامة اللامعقول فيتساءل : من أنا ؟ ولماذا وجدت ؟ هنا يكون الرجل قد وصل الى « وجوده الحقيقى » •

تدور الفلسفة الحقيقية اذن حول وجود لا عقلى تعتبره الوجود الحقيقى • وهو عبارة عن جو شعورى غريب تغيب فيه الذات ولكنها لا تفهمه بل تتجرد فيه من كل ما هو مفهوم انطلاقا من موقف الوجودية الرافض لامكانية معرفة الوجود ومعرفة الحقيقة الموضوعية ، مفضلة الهرب من الواقع الى سرداب الشعور الذى يخيم عليه ظلام اللامعقول ذلك الوجود اللامعقول تقوم عليه مقولة أن الوجود سابق على الماهية بمعنى أن الفرد فى رأى الوجودية يجب ألا يتصرف بناء على تحديدات عقلية أو مبادىء لأنه مادام الوجود الحقيقى هو وجود الشعور الذاتى فلا بد من رد الأشياء والأفعال اليه •

يؤدى بنا ذلك الى استعراض الموقف الشاذ للوجودية من قضية حرية الانسان ووجوده • فسارتر مثلا يرى عدم وجود حتمية ، وأن الانسان حر • واذا لم يكن هناك اله فلن يكون لدينا أية قيم أو نواه تستطيع اضفاء الشرعية على سلوكنا • لهذا قال أن الحرية الانسانية تتجلى فى أن الاختيار لا يقترن برؤية ولا يكون مسبوقا بتدبير عقلى أو

تحـديد لغاية أو معرفة ببواعث • هـذه الحرية مقيدة بمواقف تتحكم فيها ولكنه بمقـدور الانسان أن يتخلص منها وان يزاول حريته وبالتالى فهو رب أفعاله وصـانع مصيره (٣) •

ترتب على هذا الفهم المميز للحرية فى الفلسفة الوجودية اسـقاط جميع القيم وتبرير تحرر الفرد من الزواجر التى يفرضها العرف الاجتماعى أو العقيدة الدينية أو توجيهات أية سلطة تقيد حرية الانسان وهو المفهوم الذى أصبح شائعا بين الناس كناية عن الوجودية والوجوديين •

باختصار ، يتم سلوك الفرد بناء على « الدافع الغريزى » فى نفسه هو دون استلهام أيه فكرة عقلية • وبعد أن يقوم الفرد بسلوك ما تتحدد القيم من واقع سلوكه سواء أكانت قيما تحض على الأنانية أم على التضحية • فالفعل يسبق الفكرة والمهم ألا تقوم تصرفات الفرد على اقتناع منطقى وانما على مجرد الانطلاق الذاتى ، فاللامعقول هو المنطق الأكبر • أى أن اللامعقول فى نظر الوجودية هو المعنى الحقيقى للحرية لأن الفرد لا يتقيد فيه بأفكار أو مبادىء وانما يقوم ببساطة « بالاختيار ثم الانطلاق » • تلك المحاولات الدائبة التى تسيطر عليها أوهام التحرر من واقع الحياة ومن العقل كان لابد أن تؤدى الى حالة مماثلة من الاستغراق فى مشاعر لا عقلية مثل اليأس واللامبالاة والخوف والضجر والقلق والغثيان والندم ، وهى حالات نفسية عانت منها الجماعات والأفراد كثيرا فى الغرب ، كما تمكنت من السيطرة على كثير من الكتابات الأدبية والاجتماعية فى الدول الغربية ، كما نقرأ مثلا فى « أسطورة سيسيف » التى أشرنا اليها وفى « مرحبا أيها الحزن » لفرانسواز ساجان ، وفى غيرها من المؤلفات التى يطفح بها الأدب الوجـودى عامة •

تعقيب :

نستخلص مما سبق أن اشتراط الفلسفات الأربع (الوضـعية ، الوضعية المنطقية ، البراجماتية ، الوجودية) ضرورة التحقق من صحة أو

وجود الشيء عن طريق التجربة الحسية ، أو ثبوت منفعة فورية له ، أو عدم الاعتراف الا بالوجود الشخصى الفردى للأنا ، كل ذلك جعل مواقفها متقاربة ازاء القيم الروحية والأخلاقية • وعلى ضوء تلك المواقف يتعذر القول أن أيا منها يمكن أن ترى فى الدين منهلا أو مصدر الهام يهدى الفكر والسلوك •

هنا بالضبط يكمن التناقض الجذرى لهذه الفلسفات مع مفاهيم وممارسات الاسلام وهو ما سنشرحه من خلال الأبعاد الأربعة التالية :

من حيث الخلفية ، لا يزال الاسلام كرسالة يتمتع بنفس الشفافية التى كان عليها يوم ظهر ، لأنه لم يقترن بأية رئاسة دينية لها حق اصدار أوامر نهائية فى أصول الدين وفروعه أو تملك سلطة ارغام الناس على اتباع ما تقرره ، كما هو الحال فى الأديان الأخرى • وقد أدى عدم وجود مثل تلك المؤسسة الدينية أو الكهنوت الى عدم تورط الاسلام كعقيدة فى استغلال أو قهر مثلما حدث من جانب الكنيسة الكاثوليكية فى العصر الوسيط وما ترتب عليه من ردود فعل معادية ليس فقط للكنيسة وانما أيضا للعقيدة الدينية نفسها على نحو ما أظهرته الفلسفات الأربع كما شرحنا أعلاه •

من حيث حماية الاسلام لشخصية الانسان وتماسك المجتمع ، نلاحظ أنه خلافا للظروف والأوضاع الصعبة التى سادت فى مطلع النظام الرأسمالى وقبيل ظهور التيارات الاشتراكية فى أوروبا ، فان الاسلام رغم الظروف التى مر بها أو سيمر بها يستطيع عن طريق موازنته بين الروح والعقل وبين النفس والمادة أن يضمن تكامل شخصية الانسان وعدم تمزق الجماعات أو اغتراب الأفراد •

من حيث العقيدة ، سنرد فى المبحث التالى على دعاوى الالحاد فى المذاهب المادية والفلسفات الغربية على السواء حيث لا يوجد فرق كبير فى الواقع بين مواقفها منه ، اللهم الا فى مدى الصراحة والعلانية •

من حيث الموقف من الحرية ، على الأقل بالنسبة للمفهوم المشوه الذى تطرحه الجودية ، نرى أن الموضوع يحتاج الى رد واضح • ولعل سبب اهتمامنا بهذه الفلسفة ومردوداتها هو افتتان بعض المفكرين والكتاب فى الدول الاسلامية بمفاهيمها الهابطة إما عن عـدم ادراك سليم لبواعثها وأهدافها ، وإما من قبيل التقليد غير الرشيد • ومع تسليمنا بأن الفلسفات الليبرالية الثلاث السابقة تأثير ضار أيضا على العالم الاسلامى ، الا أنه محصور بدرجة كبيرة فى بعض أوساط العلماء والفلاسـفة • أما خطر الوجودية فيتمثل فى تأثيرها المدمر الذى يتسرب عن طريق المبهورين بها من أنصاف المثقفين الذين يغفلون عن بعض ايجابيات الحضارة الغربية بينما يقومون باغراق وسائل الاعلام والثقافة بانتاج يتحمس لكل ما هو سلبى فى التراث الغربى وخاصـة لأنماط السلوك الوجودى •

يختلف مفهوم الاسلام للحرية عن مفهوم الوجودية • فقد كرم الله الانسان وخلقه حرا وحض فى كتبه ورسالاته على احترام شخصية الانسان ونهى عن اكراهه على فعل شىء ولو كان فى مجال العقيدة لقوله تعـالى : « لا اكراه فى الدين » • والقارىء للقرآن الكريم ، يستطيع أن يتعلم منه أدب الحوار الربانى وهو الغنى عن البشر ومع ذلك يعطى الله الدليل تلو الدليل والحجة بعد الحجة ليقتنع الانسان بكامل حريته بالرسالة المحمدية •

لم يكفل الاسلام للانسان حرية العقيدة فقط وانما حض على حرية الفكر أيضا وذلك بمنحه نعمة العقل الذى هو منفذ التكليف من الله • فاذا جاءت الوجودية أو غيرها من الفلسفات الغربية لتنكر ملكات العقل ، فما الذى يتبقى للتمييز بين الانسـان والحيوان ؟ الا يشترك كلاهمـا فى الوظائف الفسيولوجية العامة ككائن عضوى ؟ وما الذى يفعله الحيوان أكثر من أنه يطبق مانادت به الوجودية من أن السـلوك يتم بناء على الدافع الغريزى وحده دون استلهام أية فكرة عقلية • هذا طبعا مع الأخذ فى الاعتبار أن الحيوان لم يمنح نعمة العقل ليعطله بارادته • واذا استرجعنا ما ذكرناه عن الوجودية فسنلاحظ تشابها كبيرا من حيث أن سلوك الحيوان أيضا يتم دون

تفكير وبناء على دافع غريزى يجعله ينطلق للطعام أو الشراب أو التناسل أو الاعتداء على كائن آخر دون التقيد بقيم أو مبادىء ، وان كان هذا الحيوان معذورا مرة أخرى لأنه لا يعقل ولم يبلغ برسالات سماوية أو نواميس وضعية تردعه عن ايذاء نفسه أو الاضرار بالآخرين .

ان الاسلام وان كان قد اعترف بالحريات الأساسية للانسان كحرية الاعتقاد والفكر والرأى والتنقل .. الخ ، فانه خلافا للوجودية اشترط تدبير العقل قبل العمل ، ثم أحاط العقل بالضوابط والروادع التى تكفل خروج العمل فى النهاية محققا مصلحة لصاحبه ومجتمعه ومتفقا مع تعاليم ربه . فالمسلم الحر لا يختار ثم ينطلق دون تفكير ولا يدع الدافع الغريزى وحده يتحكم فيه ، وانما عليه قبل ذلك ، ولكى يظل حرا ، أن يحافظ على نفسه وعلى حرية الآخرين . ولا يتأتى هذا الا بالتحكم فى الاهواء والشهوات وتهذيبها . وما ينطبق على الفرد ينطبق أيضا على الجماعات والأمم . فالأمة لا يمكن أن تكون حرة هى الأخرى اذا استبعدت أمة سواها أو قهرتها . والخلاصة ان الاسلام لا يتصور حرية بدون قيود وزواجر لحماية الفرد نفسه ولحماية المجتمع وتطبيق مبادىء الشريعة .

ثانيـــا ـ الماركســـية والدين

تنكرت بعض الجماعات البشرية منذ القدم للهداية الالهية المتمثلة فى رسالات الأنبياء فانتشرت فلسفات وأديان وضعية كان يغلب عليها الطابع الوثنى . الى جانب ذلك ، عرف الانسان أيضا تيار الالحاد ، وهو بدوره قديم قدم الحياة الاجتماعية والحضارات الغابرة . وقد تباينت آراء الفلاسفة حول تفسير طبيعة الوجود وبالتالى تعددت مذاهبهم . فزعم بعضهم أن المادة سابقة فى الوجود على كل شىء وهؤلاء هم أصحاب المذهب المادى ، بينما قال آخرون أن الروح (أو العقل) سابقة فى الوجود على المـادة ، وهؤلاء هم أصحاب المذهب الروحى . وسنستعرض فيما يلى باختصار (٣١) تطورات المذهب المادى ، وتفسيرات الماركسية له ، ثم نبين أوجه القصور

الأساسية فى ذلك التيار وعجزه عن فهم آية الخلق • وقبل الاسترسال ، نعرف المادة بحسب مفهومها التقليدى بأنها ذلك الجسم أو الشىء الذى له وزن ويشـــغل حيزا ويبدو على شكل صلب أو سائل أو غازى •

عرفت البشرية فى ظل الوثنية نماذج من الفكر المادى الرافض لخرافات الكهنة وتعدد الآلهة ، ومن ثم اتجه الى الالحاد • من تلك النماذج ما يعرف بأنشودة عازف القيثارة التى كتبت على احدى أوراق البردى على لسان فنان مصرى قديم أنشد فيها قائلا : « ليس ثمة شىء يصرفنا الى رواية الأقاصيص عن العالم الآخر •• فلنشغل أنفسنا بشئون الدنيا » • بالمثل يمكن العثور على نموذج آخر لجذور المذهب المادى فيما ردده البابليون من أن الماء هو أصل الموجودات وهو رأى نقله عنهم فيما بعد فلاسفة الأغريق من الطبيعيين الذين فسروا الوجود برده الى الماء كما فسره بعضهم الآخر برده الى الهـــواء •

غير أن أنضج نماذج المذهب المادى فى العصور القديمة ظهر على يد الفيلسوف الاغريقى ديموقريطوس (٤٦٠ — ٣٧٠ ق • م •) الذى ظن أن الكون لم يكن به منذ البداية سوى شيئين فقط هما : الذرات والفراغ • فكل الموجودات لديه تتألف من جواهر مفردة أو ذرات يفصل بينها فراغ ، وهى عبارة عن جسيمات مادية ثابتة أبدية فى حالة حركة دائمة ، وهى غير قابلة للانقسام • ينشأ عن هذه الحركة اجتماع بعضها بالبعض الآخـــر ، فتتكون الأجسام متخذة صورتها المحددة ، واذا انفصـــلت تلك الذرات تحللت الأجسام وفسد الكائن العضوى • بذلك تصير الأشياء فى نظره مجرد امتداد وحركة • ويكمل تلك النظرة المادية اقتناعه بالعلاقة السببية وبالحتمية مع انكاره لعامل المصـــادفة التى اعتبرها نتيجة الجهـــل •

وتعتبر مناقشات سقراط فى العقل والفضيلة والمعرفة وكذلك كتابات أفلاطون وأرسطو ممثلة لمرحلة انحسار لذلك التيار ورفض للنزعة المادية فى تفسير الوجود • ولم تدب الحياة مرة أخرى فى تلك النزعة الا بعد ظهور

كتابات الفيلسوف اليونانى أبيقور Epicurus (٣٤١ — ٢٧٠ ق • م •) الذى استخف بالنظر العقلى المجرد ونادى بضرورة الربط بين الفكر والحياة العملية مع التحول عن التفكير فى الوجود الى البحث فى سلوك الانسان والتطلع الى تحقيق الطمأنينة والسعادة روحيا وحسيا • ومن الملاحظ أن الفكر الكنسى فى العصر القديم ومن بعده الفكر المدرسى فى العصر الوسيط استنكرا تأكيد أبيقور لحق الانسان فى تحقيق السعادة عن طريق اشباع الحاجات الأساسية فى الطبيعة البشرية وأطلقوا على الماديين اسم « الشهوانيون من اتباع أبيقور » •

أما اسحق نيوتن Isaac Newton (١٦٤٣ — ١٧٢٧) عالم الطبيعيات والفيلسوف الانكليزى المعروف فانه يعتبر نموذجا شاذا فى هذا التيار اذ رغم انه يصنف عادة ضمن المفكرين الماديين الا أن الواقع يدل على أنه استطاع التوفيق بين ايمانه الدينى وبين النتائج المادية التى استخلصها من مكتشفاته العلمية ، وخاصة اعترافه بالحقيقة الموضوعية وقدرة الانسان على معرفة العالم ، وقد سميت ماديته فيما بعد المادية الميكانيكية (٣٣) لأنها تعرفت فقط على أبسط أشكال الحركة ، أى التغير المكانى مع عدم اهتدائها الى التحولات الكيفية فى الطبيعة وما تؤدى اليه من تغيرات •

نموذج هام آخر تمثل فى الفيلسوف الفرنسى باول هنرى أولباك Holbach (١٧١٣ — ١٧٨٩) الذى أسهم فى تطوير المذهب من خلال دفاعه فى مؤلفه الرئيسى المسمى « نظام الطبيعة » عن أسبقية وجود المادة • وقد رفض أولباك كل الاجتهادات التى تقول بأن وراء الظواهر المحسوسة عالما أو موجودات غير مرئية ، واعتبر أن المادة والحركة أزليتان تتحكم فيهما قوانين ضرورية وعن طريقهما يمكن تفسير كل شىء فى الوجود • ثم اتجه الى انكار وجود أية قوة خالقة أو وجود النفس البشرية ، كما أنكر أن للطبيعة غاية أو هدف تسير الى تحقيقه •

تلك هى بايجاز شديد أهم مقولات المذهب المادى ، وخلاصته أن

العقل صورة من صور المادة التى تتميز بالقوة والتنوع والحركة والحيـاة والتفكير ، ولكنه لا وجود لعقل أو روح على نحو مفارق للمادة أو مستقل عنها • ويفسر المذهب المادى ظواهر الحركة فى الجسـم البشرى (التى نسميها نحن الروح) بأنها وظائف فسيولوجية لأعضاء الانسان • فالتفكير وظيفة المخ أو على حد قول أولباك فان العقل هو الجسم منظور اليه من ناحية بعض وظائفه ، كذلك فان التذوق وظيفة اللسان • بعبارة أخرى ، فان المخ يفرز التفكير كما تفرز الكبد الصفراء وكما تهضم المعدة الطعام •

نستعرض بعد ذلك بايجاز أيضا كيفية دفاع الماركسية عن المذهب المادى تمهيدا لمناقشة دعاوى المذهب المـادى ككل • ترى الماركسية أن المادية والمثالية هما الاتجاهان الأساسيان فى الفلسفة ، وأن كل مدرسة فكرية كانت تحدد موقعها من الصراع الدائر حولها من خلال اجابتها عن المسألة الرئيسية وهى علاقة الفكر بالواقع • لهذا ميزت الماركسـية بين المفهوم الأخلاقى والمفهوم الفلسفى لكل من المادية والمثالية ، وإن كنـا سنلحظ من خلال تلك التفرقة شكلا من أشكال الصراع المرير بين الماركسية وبين الليبرالية الرأسمالية رغم عـدم اختلافهما من حيث الجوهر حول قضـية الايمـان الدينى •

لما كانت الماركسية هى الوريثة الرئيسية للمذهب المادى فى القرنين التاسع عشر والعشرين فقد وجهت نقدا شديدا للمفكرين الذين خلطوا عن عمد بين المفهومين الأخلاقى والفلسفى لكلمة مادية حتى يتمكنوا من الدفاع عن مصالح اقتصادية وسياسية معينة • كما اعترضت على الاتجاه السائد منذ العصور القديمة للتشهير بالمادية من منطلق أخلاقى على أساس أنها تعنى الانحلال والرغبة العارمة فى الملذات والأفق الضيق الذى لا ينظر الى أبعد من الحاجات الحسية ، وأعطت مثالا على ذلك ما تعرضـت له مدرسة أبيقور من تشهير فى عصور لاحقة على يد الكنيسة على نحو ما أوجزنا أعلاه• وقد لخص فريد ريش أنجلز Friedrich Engels رد الماركسية عـلى هذا التشهير بقوله أن الرأسماليين هم أولى بهـذه التهم التى يحاولون

التخلص منها بالقائها على الغير • ففى تعليقه على الفلسفة الكلاسيكية الألمانية سخر من البورجوازى الألمانى المترهل الذى « يفهم من المادية النهم الى الطعام والسكر والتبجح واللذات الجنسية والجشع للنقود والبخل والفسق والركض وراء البورصة والقمار وباختصار كل تلك الرذائل التى يستسلم لها هو نفسه سرا (٢٢) » • على العكس من ذلك ، ترى الماركسية أن المفهوم الصحيح لكلمة مادية هو المفهوم الفلسفى ، اذ طبقا له تعنى المدية أن العالم أو الواقع موجود خارج شعور الانسان أو وعيه ومستقل عنه أى أنها تفصل بين الطبيعة المادية والذات المدركة وتعترف بوجود الأشياء المادية مستقلة عن العقل الذى يدركها • وتبدأ المادية من الواقع لأنها تؤمن بقدرة الانسان على تحويله الى واقع أفضل • هذه الحقيقة الأخيرة فى نظر الماركسية هى السر الذى يكمن خلف عداء الرأسمالية للمادية ليس عن ايمان دينى وانما لاعتبارها أن الحديث عن قدرة الانسان على تغيير واقع سيء هو دعوة ثورية غير مقبولة •

ثم تشرح الماركسية موقفها من المثالية فتقول أن لها مفهومين هى الأخرى • المفهوم الاخلاقى يرى أن المثالية أو المثال هو الغرض السامى الرفيع • وتستعمل كلمة مثالى بشكل خاطىء أحيانا لتدل على الانسان الذى يضحى بنفسه من أجل فكرة أو قضية ما • أما المفهوم الفلسفى فيختلف عن ذلك تماما لأن كلمة مثالى مشتقة من كلمة « مثال » التى كان أول من استعملها بالمعنى الميتافيزيقى الأغريقى أفلاطون بمعنى « الصورة الفكرية التى توجد على نمطها الأشياء المادية » • والمثالية تنظر الى الكون المادى من خلال الذات العارفة وتعلق وجود الطبيعة المادية على وجود العقل الذى يدركها •

هذا وقد تأثرت الماركسية بشكل كبير بكتابات الفيلسوف الألمانى المادى لودفيغ فويرباخ الذى جعل الانسان مركز الصدارة فى فلسفته ، كوجود مادى فسيولوجى له مشاعر وتفكير يتعرف على الطبيعة الموجودة وجودا موضوعيا • ولم يكن يعترف بوجود شيء آخر أعلى من الطبيعة ، وفى هذا يقول أنجلز نحن لا ندافع أبدا عن وجهة نظر هيجيل التى تتخذ من الروح

أو العقل أو الفكرة نقطة بدء ، وتعتبر العالم الواقعى نسخة من هذه الفكرة ، ولقد سبقنا فويرباخ الى ذلك ورفضها (٣٤) » •

تعقيب :

سنناقش ما ورد أعلاه لاثبات خطأ منطلقات الالحاد ، ثم ندعم ذلك بحجج وأسانيد سياسية ومنطقية • وسينقسم ردنا فى هذا التعقيب الى ثلاث نقاط :

النقطة الأولى :

هى اعتقادنا بأنه ليس من العدالة تحميل أى دين سماوى أوزار مؤسسات أو شخصيات دينية انحرفت عن تعاليمه كما حدث لليهودية والمسيحية ونذكر بما سبق أن أشرنا اليه من أن الاسلام لم يعرف مثل تلك المؤسسات أو الكهنوت • إن الصهيونية المعاصرة على سبيل المثال لا تستطيع أن تحجب الجوهر الصافى لليهودية كدين سماوى لا شأن له بالطابع الانتهازى واللامبدئية اللذين تعكسهما الأيديولوجية الصهيونية • وكما هو معروف ، فقد وضعت الصهيونية منذ أواخر القرن الماضى أهدافا محددة تتمثل فى منع اندماج اليهود مع الأمم الأخرى ، والتخطيط لاغتصاب « أرض الميعاد » فى رأيهم ، وجمع الشراذم التى يتم تجميعها من كل الشعوب وصهرها فى بوتقة واحدة لتحويلهم الى شعب جديد • وفى سبيل ذلك تبنت الصهيونية فى وقت واحد عقائد متنافرة سنشير اليها فى البند التالى حتى تستطيع استمالة اليهود بمختلف ميولهم وأوضاعهم الاجتماعية والثقافية والتأثير فى حكومات وشعوب العالم للتوصل بأى ثمن الى تحقيق تلك الأهداف (٣٥) •

إن تزييف الدين اليهودى وتسخيره لأهداف عدوانية لم يكن من ابتكار الصهيونية المعاصرة وحدها ، وان كانت هذه الأخيرة خلاصة لكل ما هو سلبى فى القيم والسلوكيات التراثية لليهود كما ورد مؤخرا فى دراسة علمية

هامة لأحـد أساتذة الجامعة اليهود • (٣٦) ويعطى هذا العالم أمثلة أخرى من التاريخ اليهودى يذكر منها : القانون القبلى القديم الذى كان يحرم تناول الطعام أو الزواج المختلط مع غير اليهود ، الحاخامات الذين لعنوا كل من يعلم ابنه علوم اليونان ، التوصية التى تقول « ستقتل أحسن الأغيار » ، هؤلاء الذين أحرقوا كتب المفكر اليهودى الأندلسى موسى بن ميمـون ، الحاخامات المتعصبون اليوم الذين ينادون بالتمييز ضـد أتباع الديانات الأخـرى •

يقابل ذلك تيار آخر يعبر عن اليهودية كدين سماوى دافع عنه هؤلاء الذين قاوموا عقد الاستعلاء التقليدية عند بعض اليهود ، ورفضوا العزلة عن الأمم الأخرى وحاولوا بناء جسور من التفاهم مع الأمم الأخرى • من هؤلاء هيلل القديم ، والمسيح عليه السلام ، والذين نادوا بمبدأ « ستحب أنت الغريب » ، ومفكرو مدرسة الاسكندرية والقراءون الأوائل •

قد يقول قائل أن هذا التيار الأخير كان هو الأضعف وأنه يكاد يكون قد اندثر • رغم ذلك نستشهد به لاثبات مقولتنا بعدم مسؤولية أى دين سماوى عن أوزار بعض المؤسسات أو الشخصيات التى اتخذت من الدين ستارا لتطعن الرسالة وتعصى الله وتحرف التـوراة من أجـل أطماع دنيـوية زائلة •

بالنسبة للمسيحية ، لا نتفق بالمثل مع التيارات السياسية والفلسفية التى ظهرت منذ بداية النظام الرأسمالى والتى لم تفرق بين المسـيحية كرسالة سماوية وبين الكنيسة الكاثوليكية كمؤسسة أساءت التصرف فى العصر الوسيط بانغماسها فى شئون الدنيا كامتلاك مساحات شاسعة من الأراضى الزراعية ، ومشاركتها السلطات الزمنية للاقطـاع فى استرقاق الفلاحين ، ومناصبتها العداء للمفكرين المبدعين ، واتخاذها من التكفير سلاحا تهدد به العلماء والمكتشفين • وبدلا من أن تقتصر الادانة على دور الكنيسة فى تلك المرحلة ، تعرضت المسيحية نفسها للتشكيك من قبل الفلسفات الليبرالية الرأسمالية ومن بعدها الماركسية مرة باسم العـلم والتجريب ، وأخرى بحجة انكار معجزة الخلق •

فاذا اتخذنا الشخصيات الدينية أو المؤسسات كمعيار لتحديد المواقف كما فعل هؤلاء ، نقول أن هناك ادلة تقدم صورة معاكسة لبعض رجال الدين المسيحى الذين ارتبطوا بقضايا شعوبهم انطلاقا من فهم صحيح لمغزى الدين فى حياة الانسان • لقد كان يمكن لهيلا ريون كابودجى مثلا الذى قضى ثلاثة عشر عاما مطرانا للقدس أن يظل فى هذا المنصب الرفيع إن هو سكت عما لحق بالقدس • لكن نشاطاته ومواعظه القائلة : « انا انسان أنا مسيحى أنا رجل دين ••• فلسطين وأبناؤها أمانة ••• يكتسب الانسان صفته بقدر نسيانه لنفسه ••• الخ » كان لابد أن تتصادم مع الأيديولوجية الصهيونية فيفقد منصبه ويطرد من وطنه •

ولعل موقف المؤسسة الكنسية فى الأمريكتين الوسطى والجنوبية دليل حاسم آخر على أن المشكلة تكمن فى كيفية تفسير الانسان للدين فالبعض يفسره بشكل يخدم مصالح فردية أنانية ، والبعض الآخر يستلهم أغراض الشارع فى إعمار الكون وهداية البشرية لما هو أقوم • فبعد سكوت وسلبية دامت قرونا نلاحظ اليوم موقفا مغايرا أشارت اليه صحيفة لوس انجيليس تايمز تمثل فى وثيقة الاستنكار التى وقعها فى شهر مايو ١٩٨١ فى مدينة مكسيكو خمسمائة من مسؤولى الكنيسة بينهم كاردينال البرازيل الذى كان مرشحا لمنصب البابوية •

تقول الوثيقة : « نحن مطارنة وكهنة المكسيك وأمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية نستنكر الوضع التعس الذى يعيشه شعب السلفادور فى ظل حكم الزمرة العسكرية المسؤولة عن عمليات الخطف والاختفاء والابادة الجماعية » ونلاحظ أيضا أن مثل تلك المواقف الحاسمة هى محصلة لتطورات سابقة وصلت الى الذروة بالقدوة الصالحة التى قدمها الكاردينال أوسكار روميرو Oscar Romero الذى خططت لاغتياله أكثر من جهة لرفضه وقف مواعظه وتأييده العلنى للمطالب الشعبية التى أصبحت متشابهة فى القارتين من حيث رفض التدخل الأجنبى ومناطق النفوذ والمطالبة باصلاحات اجتماعية جذرية •

النقطـــة الثانيـــة :

نوضح فيها رفض الاسلام للمقولة المدسوسة على الدين من أن الانسان خلق فى هذه الدنيا ليشقى وذلك لأن هذه المقولة هى احدى الحجج الرئيسية التى يستند اليها أنصار المذهب المادى ليس فقط فى ادانة النظام الرأسمالى بسبب عـدم انسانيته واستخدامه للدين كغطاء للاستغلال وانمـا أيضـا لتشكيك هؤلاء فى الدور الاجتماعى للدين نفسه • وفى الواقع فقد وجه الماركسيون نقدا لرجال الدين الذين استخدموا قدراتهم الكهنوتية منذ القدم لتهدئة العبيد وأرقاء الأرض فى العصور القديمة والوسيطة ثم العمال فى ظل النظام الرأسمالى واقناعهم بالتحمل والصبر على ســوء الحال لينعموا بحيـــاة سعيدة فى الآخـــرة •

ولكى يثبت الماركسيون نقدهم هذا ، جاءوا بأمثلة عديدة نكتفى بواحد منها استشهدوا فيه بالآراء الصريحة للمؤرخ ورجل الدولة الفرنسى تيير الذى قال : إننى أطالب بصراحة بشىء آخر غير أولئك المعلمين العلمانيين الذين أمقت أغلبهم • إننى أريد اخوانا مسيحيين رغم أننى أسأت الظن بهم من قبل • وأريد أيضا أن يسترد تأثير الكنيسة كامل سلطانه • اننى أطالب بأن يكون تأثير القسس قويا لأننى أعتمد عليه اعتمادا كبيرا فى نشر هذه الفلسفة الطيبة التى تعلم الانسان أنه هنا فى الدنيا ليشقى » » (٣٧) •

والقرآن الكريم يتحدث عن قارون وظلمه لقوم موسى بعد أن ولاه عليهم فرعون فيقول : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد فى الأرض » (٣٨) أى اطلب فيما أعطاك الله من الغنى ما تستحق به النجاة فى الآخرة ولا تنسى أن تحصل على نصيبك من العيش فى الدنيا لتستعين به على الحياة • ويرفض الله سبحانه وتعالى مفاهيم التقشف الخاطئة التى ظنهـا البعض ملازمة لمناسك الحج أو السلوك البشرى فى الحياة الدنيا فيقول للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من

الرزق (٢٩) • هذه الاباحة وان كانت للبشر فهى من باب أولى للأنبيـاء والرسل يقول الله عز وجل عن السيدة مريم وعن عيسى عليه الصـلاة والسلام وكيف أولدها اياه دون أن يمسها بشر ثم آواهما ورزقهما من الأرض : « يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا انى بما تعملون عليم » (٣٠) حتى فى العبادات وأسلوب القيام بها يخفف الله عن رسوله الكريم ويخاطبه قائلا : « طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » (٣١) •

النقطـة الثالثـة :

هى أن الاسلام ، خلافا لكل الأيديولوجيات والفلسفات،قد فند مقولات الشرك والالحاد منذ القدم الى جانب أنه استطاع اثبات وجـود الخالق بأسلوب لا يستطيع المنطق العلمى المعاصر الا التسليم بمعقوليته ، وسنشرح ذلك فى نهاية هذا البند • يقدم القرآن الكريم الدليل تلو الدليل على وجود الخالق وقدرته التى لا يشاركه فيها أحد ويحذر من مغبة انكارها أو الشك فيها • « وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين • فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » (٣٢) •

يسوق الله أدلة أخرى فيسأل المشركين عما اذا كانت آلهتهم تستطيع اتيان معجزة الخلق ثم معجزة البعث • ويكذبهم الله لأنه وحده القادر على بدء الخلق ثم اعادته • ثم يسألهم هل من آلهتهم من يرشد الناس الى الحق بنصب الحجة ووضع المعالم للسالكين الى الحق ؟ « قل هل من شركائكم من يبدؤا الخلق ثم يعيده قل الله يبدؤا الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون قل هل من شركائكم من يهدى الى الحق قل الله يهدى للحق أفمن يهدى الى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدى الا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون » (٣٣)• وهل من آلهة أخرى مزعومة تستطيع ازاحة الغم والضرر عن الخلق وتحويله الى غيرهم الا الله « قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشـف الضر عنـكم ولا تحويلا » (٣٤) •

لا شك أن قضية القضايا كانت ولا تزال هى معجزة الخلق • ولا تتجلى قوة الاسلام بقدر ما تتجلى فى مناقشة هذه الآية بوسائل أكثر عقلانية وعلمية من أية أيديولوجية أو فلسفة أخرى ناهيك عن الوحى بالقرآن نفسه الى نبى أمى فى بيئة متخلفة ، مع الكشف فيه عن حقائق علمية لم يهتد اليها العالم المتقدم الا فى القرنين الأخيرين كانفصال الأرض عن المجموعة الشمسية منذ ملايين السنين ، ودور الجبال كرواسى فى حفظ الكرة الأرضية ، ومراحل تطور الأجنة فى الأرحام •

يبدأ الاسلام بالاعتراف بعالم الروح وعالم المادة دون اللجوء الى أسانيد شاذة لا يقبلها العقل مثل تلك التى استعان بها الأسقف الانكليزى باركلى على نحو ما أشرنا اليه أعلاه • ولاظهار تهافت حجج هؤلاء ، يكفى أن نقول أن المسيحيين أنفسهم الذين ظن باركلى أنه يتكلم باسمهم نقدوا آراءه لأنها أدت فى النهاية الى هدم المذهب الروحى نفسه بدلا من الدفاع عنه • من ضمن شكك فى جدية آرائه أيضا الفيلسوف دافيد هيوم الذى استعرض آراء باركلى القائلة أننا لا ندرك من الأشياء الا صفاتها الحسية وهذه من صنع عقولنا ، وهو ما يعبر عنه بقوله ان المادة هى الفكرة التى نصنعها عن المادة • فالمادة هى الفكرة • من ثم ليس للمحسوسات وجود حقيقى خارج أذهاننا • وقد أضاف هيوم الى ذلك أنه بناء على هذا الهراء ، فان العقل والروح والخالق مجرد أوهام ليس لها وجود حقيقى (٣٥) • بعبارة أخرى ، فان الفلسفات المثالية — ومنها فلسفة باركلى التى يصفونها على أنها مثالية ذاتية — تخفق فى اثبات أسبقية وجود الروح على المادة بسبب الأدلة التعسفية التى تلجأ اليها والتى لا يقبلها المنطق أو التفكير السوى •

ملاحظة أخيرة هى أننا اذا استخدمنا المعايير العلمية المعاصرة لوجدنا ظاهرة جديرة بالتسجيل والتأمل • ذلك أنه رغم الانجازات العلمية والتكنولوجية الباهرة التى أحرزتها الدول المتقدمة فى مجال الذرة أو أبحاث الفضاء على سبيل المثال ، فاننا سنتوقف أمام حقل واحد محدد لا يزال

انجاز علماء البشر فيه صفرا ، رغم كل المحاولات المبذولة لاحراز أية نتيجة ملموسة فيه • ذلكم هو مجال الخلق ، أى العجز عن خلق أية خلية حية لا نقول من العدم بل حتى ولا من نفس المادة أو من مادة مغايرة • يستطيع أى منحنى بيانى نرسمه لتصوير مدى عظمة الانجازات البشرية أن يُحلّق ما يشاء بين هذا الحقل أو ذلك ، ولكنه لن يسجل شيئا أمام هذا السر الأكبر • فاذا استخدمنا نفس المنطق العلمى الذى لا تقبل بغيره الأيديولوجيات والفلسفات المعاصرة واستقرأنا مغزى عدم التناسب الكبير فى هذا المنحنى المقترح ، ألا ينهض ذلك دليلا على وجود خالق ليس كمثله شى يقول للشىء كن فيكون •

واذا كان هذا المنطق يصلح للرد على الفلسفات المثالية التى لم تستطع أن تقيم حججها على أسس مقنعة ، فاننا نرى أنه قادر على الرد أيضا على منطق الحاد المذاهب المادية التى تعانى بدورها من قصور كبير يتجلى فى استخدامها لأدوات معرفة قاصرة تجعلها عاجزة عن تصديق آية الخلق التى يوجزها الله سبحانه فى كلمات قليلة تغنى عن المثالية الشاذة المفتعلة ، وترد بتحد اعجازى على قصور المذاهب المادية • تقول الآية الكريمة : « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ، ما قدروا الله حق قدره ان الله لقوى عزيز » (٣٦) •

ثالثا ـ الصهيونية والفاشية والنازية وموقفها من الدين :

يخاطب الاسلام كل الأمم والشعوب والجماعات والأفراد بلغة واحدة تقوم على المبدئية والنهج الواضح بغض النظر عن العقيدة أو العرق أو اللون أو المكانة الاقتصادية أو الاجتماعية • وليست كذلك الأيديولوجيات الثلاث التى نحن بصدد دراستها • ولعله ليس هناك أيديولوجيات أولى بالتصنيف مع بعضها البعض من تلك الأيديولوجيات الثلاث خاصة اذا وضعنا فى اعتبارنا تماثلها من حيث عدم المبدئية والانتهازية والغموض ازاء

القضايا الحساسة كقضية الدين ووضع أكثر من قناع فى نفس الوقت لتسهيل محاورة أية أيديولوجية أخرى أو نظام حكم أو فئة اجتماعية باللغة التى تحب سماعها وتتأثر بها (٣٧) • وسنركز هنا على اثبات تناقض تلك الأيديولوجيات مع القيم الروحية والأخلاقية التى يؤمن بها الاسلام والأديان السماوية الأخرى •

١ ــ الصهيونية والدين :

نطلق على الصهيونية اصطلاح أيديولوجية من باب المجاز فقط لأنها من الناحية الواقعية تفتقر الى الترابط المنهجى والتجانس المفترض توافرهما فى أية أيديولوجية • وتتكون الصهيونية من خمسة اتجاهات أو تيارات رئيسية ترقى الى مستوى العقائد وهى : اليهودية ، الاشتراكية ، العنف ، دين العمل ، الجماعة اليهودية وثقافتها • نقتصر هنا على الحديث عن موقفها من اليهودية ومن الدين عموما •

اضطرت الصهيونية الى اعتبار الدين اليهودى كأحد العقائد الرئيسية التى تتبناها لمحاولة تحقيق أهدافها المرحلية الثلاثة التى أشرنا اليها فى بداية تعقيبنا على البند السابق • وقد فرضت تلك الأهداف على الصهيونية أن تتعامل مع جماعات وشعوب ونظم سياسية متباينة من النواحى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والنفسية • أما سبب الاضطرار الى تبنى الدين اليهودى فهو اختلاف يهود العالم فى كل شىء • ليس هناك مثلا جنس يهودى مميز ، كما أنهم يتكلمون لغات الأوطان التى يعيشون فيها ويجهل أكثرهم حتى اليوم اللغة العبرية • من جهة أخرى يفتقر اليهود الى عادات مشتركة وتاريخ مشترك لأن سلوكهم يعكس تقاليد وعادات مجتمعات الشتات ، بينما الدولة التاريخية القديمة التى يكثرون من الحديث عنها لم تدم سوى سبعين عاما تقريبا خلال حكم النبيين داود وسليمان عليهما السلام •

من البديهى أنه فى غياب كل هذه العوامل الهامة التى تساعد على صهر

الجماعات الانسانية وتكوين الأمم ، ألا يتبقى بين اليهود سوى رابطة الدين فقط • ورغم الأهمية البالغة لعامل الدين ، فان الصهيونية تبنت أيضا مفكرين يهود ملحدين لأن المعيار لديها هو موقف المفكر أو السياسى من أهدافها الثلاثة ، وسنثبت ذلك بنصوص حرفية من كتابات أشهر مؤسسى ومفكرى الصـــهيونية •

تعتبر آراء نبى الصهيونية تيودور هيرتزل ذات مغزى كبير فى هـذا الصدد فقد كان يتحاشى الاشارة الى العلاقة الدينية بفلسطين الا بالقدر الذى يخدم الصنم القومى • وبالنسبة له فان التعاليم الدينية المرتبطة بالأرض المقدسة مفيدة فقط كسماد ثمين يخصب البـذرة الغالية للقومية ويحميها من القوى النهمة للاندماج (٣٨) » نستشهد بعد ذلك بآراء ماكس نوردو وهو واحد من أكبر مساعدى هيرتزل وتعتبره الصهيونية من أئمة مفكريها رغم الحاده ، وقد أطلق اسمه على أحد أحياء تل أبيب • اتخـذ نوردو موقف العداء الصريح ليس فقط من اليهودية وانمـا من الأديان الأخرى كذلك اذ وجه فى كتابه : أكاذيب مدنيتنا التقليدية الصادر عام ١٨٨٣ نقدا عنيفا للدين باسم العلم والفلسفة الوضعية (التى أشرنا الى موقفها الالحادى فى البند الأول) وذلك من خلال انتقاداته للثقافة المعاصرة • لا غرو اذن ان أصدرت الكنيسة حظرا على الكتاب وحذت حذوها حكومات النمسا وروسيا وانجلترا • ويفسر نوردو الصهيونية من منطقه الالحادى فيرى ان الصهيونية الحديثة تختلف عن الصهيونية القديمة بكونها سياسية وليست كالأخرى دينية صوفية فهى لا تؤمن بمجىء المسيح المنتظر (٣٩) •

يتفق مع نوردو فى موقفه الالحادى المفكر الصهيونى ياكوب كلاتزكين الذى ذهب الى حد القول بأن (الثورة اليهودية الحقيقية لم تنتج عن تحرير اليهود سياسيا وانما كانت نتيجة فقد الايمان) • وهو الذى انتقد الحديث عن التفرد الروحى والمصير والرسالة على أساس أنها علامات على المرض لدى كل من ليس بأمة • يقول كلاتزكين : « أن تكون يهوديا لا يعنى اعتناق الدين أو القبول بالمعتقد الأخلاقى • إننا لسنا طائفة ولا مدرسة فكرية بل

أفراد عائلة واحدة ولنا تاريخ مشترك ، وأن انكار التعاليم اليهودية لا يضع الفرد خارج الجماعة ، كما أن قبولها لا يجعل من الشخص يهوديا • وباختصار ليس من الضرورى أن يؤمن الفرد بالدين اليهودى أو بالنظرة الروحية العامة لليهود لكى يصبح جزءا من الأمة » (٤٠) •

واذا كان الطابع الالحادى للفلسفة الوضعية واضحا فى كتابات نوردو ، فان البراجماتية أثرت بدورها فى تشكيل أفكار المفكر الصهيونى هوراس مانير كالن • ففى كتاباته نلاحظ اتجاها الحاديا يدعى أن الدين غير منزل وانما من صنع الانسان وتعبير عن أسمى القيم لدى الجماعة • « ان مكان الدين هو داخل الجهاز الاجتماعى وليس فوقه أو حوله ••• والا فانها سوف تموت »(٤١) • يبدو تأثير الذرائعية واضحا فى كتابات كالن • فالايمان ليس هو الذى يميز فئات المجتمع وانما حياة الجماعات التى فيه • يتأكد ذلك فى دفاعه عن الأيديولوجية الصهيونية فهو لم يكن ينظر الى الجماعة اليهودية فى الولايات المتحدة كواحدة من البيئات الحضارية وسط ديمقراطية تعددية وانما كان يعتبر الصهيونية بمثابة تأكيد على الولاء للجماعة اليهودية وثقافتها بدلا من الولاء للدين ، ويبارك من أجل ذلك محاولات الصهيونية لانشاء مجتمع يهودى فى فلسطين • انطلاقا من هذا المفهوم يصبح معنى الوحدة اليهودية هو تجميع اليهود كيهود مع استبعاد كافة الحواجز التى تفصل بينهم من حيث الطبقة الاجتماعية أو الأيديولوجية أو البلاد التى يعيشون فيها حتى يستطيع ذلك التجمع أن يضم شخصيات متنافرة من أمثال أينشتين وستيفن وايز وتروتسكى وآدلر (٤٢) • هنا نلاحظ نفس الأسلوب الأخطبوطى الذى عبر عنه الحاخام ابراهام كوك بعبارته المشهورة « شجرة الحياة اليهودية الجامعة » كناية عن الرغبة فى الاستفادة من كافة التيارات ولو كانت متناقضة وتسخير كل القوى والطاقات مع تجميد ما بينها من تعارض لخدمة الأهداف الصهيونية فى هذه المرحلة •

اذا تركنا التحليل الفكرى جانبا لنبحث فى الواقع المعاصر للكيان الصهيونى لتأكد لنا أيضا صحة ما افترضناه • فمن المعلوم أن النفوذ

الضخم للمؤسسة الدينية كان أحد العوامل الرئيسية فى عرقلة وضع دستور مكتوب لاسرائيل حتى الآن ، وفى شيوع البلبلة فيما يتعلق بمصادر التشريع فى الدولة ، وفى ارباك حياة الأفراد وعدم استقرارهم نتيجة التدخل المستمر فى مشاكل الأحوال الشخصية والهجرة والجنسية •

لا يجب أن يفهم من هذا أن النفوذ الكبير للمؤسسة الدينية ناتج عن تأييد واسع من يهود الشتات المتمسكين بأهداف الدين اذ العكس هو الصحيح • فهناك من يؤكد أن نسبة كبيرة منهم غير متدينة ، كما أن نتائج الاستفهامات التى أسفرت عنها احدى الدراسات الميدانية الهامة فى اسرائيل أوضحت أن ٤٦٪ من الاسرائيليين يطيعرن التعاليم الدينية طاعة جزئية (٤٣) أى غير متدينين بالمعايير اليهودية المترمتة •

فى الحقيقة ، ينبع النفوذ الكبير للمؤسسة الدينية من طبيعة تكوين الدولة واضطرار مفكرى الصهيونية سواء العلمانيين منهم أو الملحدين الى اثارة النعرة الدينية لدى اليهود لتوحيدهم وحشدهم وراء أهدافها مما أدى بالتبعية الى نشوء علاقة قوية رغما عنهم بين الصهيونية والدين اليهودى • ونقول رغما عنهم لأنهم كانوا يودون أن تظهر دعوتهم بمظهر الدعوة العصرية غير المتعصبة حتى تكون مقبولة من أغلبية الدول والحركات السياسية التى يسيطر على معظمها الاتجاه العلمانى • هكذا يتضح الطابع الانتهازى والمنطلق البراجماتى القائم على المنفعة لأن هؤلاء المفكرين لا يشعرون بحاجتهم الى الدين اليهودى لتوحيد وحشد اليهود فقط ، وانما الأخطر من ذلك لعلاج نقطة ضعف كبيرة فى الصهيونية وهى تلك المتعلقة بالأرض • فالحاح الصهاينة على احتلال فلسطين وادعاء وجود حق تاريخى لليهود بها سيتخذ سمة الغزو والعدوان اذا لم يقرن ويطعم بادعاءات دينية حول صدور وعد من الرب بمنح هذه الأرض لهم بصفتهم شعب الله المختار (٤٤) •

يكشف هذا بعدا آخر من التناقض والنفاق فى موقف المفكرين والزعماء

الصهاينة من الدين • فهم من جهة يثيرون ضجة عالية حول الصفة العلمانية لاسرائيل وأنها لا ترتبط بأية كنيسة ، بل ويهاجمون حزب أجودات اسرائيل لمطالبته بأن تكون الدولة ثيوقراطية تتقيد حرفيا بالعقيدة الدينية • ومن جهة أخرى وفى نفس الوقت كان رئيسا الوزراء الأسبقين بن غوريون وأشكول من أكثر المتمسكين بهذا الأساس الدينى المزيف لادراكهم لقيمته فى شحذ الوعى باليهودية ومنع الاندماج فى الشعوب الأخرى • أى أنهم يرفضون الثيوقراطية شكلا ويتمسكون بها مضمونا • ويعلق أحد المفكرين اليهود على هـذا المأزق بقـوله : « على الرغم من قلق الكثـير من العلمانيين وانزعاجهم من فكرة الثيوقراطية ، فانهم يجدون أنفسهم أكثر قلقا وأشد انزعاجا من مجرد التفكير بالرفض الصريح لعقيـدة دينيـة — حتى ولو جرى تفسيرها بصـورة متطرفة — كان الحفاظ عليهـا هو عـلة وجـود الدولة اليهودية (٤٥) » •

يتضح من ذلك أن الصهيونية لا تكترث بالايمان أو بالالحاد • فقد تبنت الحاخامات المتزمتين والعلمانيين ودعاة الدين القـومى والملحـدين ومعيارها الوحيد فى كل ذلك هو مدى استعداد هؤلاء للدفاع كل من منطلقه عن أهدافها وخاصة اغتصاب الأرض العربية • إن محصلة هذه المواقف المتناقضة وغير المبدئية تكشف الموقف الحقيقى للصهيونية من القيم الروحية والأخلاقية ونظرتها الى الدين كمجرد وسيلة نفعية وليس كمنهل أو مصدر الهام وهو ما يجعلها تقف على طرفى نقيض من مفهوم الاسلام ، ويؤكد استحالة تعايشـه معهـا •

٢ — موقف الفاشـية والنازية من الدين :

الفاشية باختصار — وتشبهها النازية — هى مجموعة متناقضة من الأفكار والمواقف تحاول ظاهريا أن تجعل من الدولة القومية محورا للحياة بل وللتاريخ أيضا • وهى لا تكترث بأية قيم دينية أو أخلاقية ولا تهتم بالفرد أو بحقوقه • كما أنها على استعداد للتضحية بمصالح الانسانية على مذبح

ما تسميه بمصالح الأمة التى تتضاءل عند التطبيق الواقعى لتصبح مصالح الديكتاتور الفاشى أو النازى والزمرة المحيطة به • سنوضح أولا المنطق المقلوب لهاتين الأيديولوجيتين ومحاولاتهما الغاء العقل وتنمية سلوك القطيع وما يؤدى اليه ذلك من نفى لأية قيم أخلاقية أو سياسية • ورغم أن ذلك قد يكفى لكشف حقيقة موقفهما من القيم الروحية ، الا أننا سنتناول أيضا موقع الدين منهما مع اعطـــاء أمثلة •

(أ) تركز الفاشية على الغرائز واللاعقل وتؤمن بما يسمى بالمنطق الحـــديدى للطبيعة الذى يجعـــل القوى يسود دائما على الضعيف ، وذا التصميم الأكبر على من لا تصميم له • فالحياة هى التى تحكم وتسيطر على العقل وليس العكس ، والأعمال العظيمة التى عرفها تاريخ الانســـانية لم يتم انجازها بالذكاء وحسن التصرف وانما أســـماه مفكروهم بغريزة القطيع أو الحدس العرقى الكامن فى الدم ، والشعوب تصل الى قمة المجد فقط « عندما تتغلب رغبتهـــا فى الســـيطرة على المعـــوقات الأخـــلاقية والطبيعية » • لهذا كانت الفاشية تستنكر فكرة السلام أكثر من أى شىء آخر • ومن الأقوال المأثورة لموسولينى فى هـــذا الشأن :

« الحرب فقط هى التى تشحذ كل طاقات الانسان وتضع طابع النبل على تلك الشعوب التى لديها الشجاعة لمواجهتها » ، « الحرب للرجل هى بمثابة الأمومة للمرأة » ، « يجب أن تتسلح كل الأمة ••• إننى أعتبر الأمة الايطالية فى حرب دائمة » (٤٦) •

ويجب أن نستبعد تماما أى قدر من حسن النية لدى الزعماء الفاشست أو النازيين بالنسبة لتحقيق العدالة بين الفئات الاجتماعية المختلفة اذ كشف بعض الاقتصاديين الغربيين زيف ما زعمته الفاشية خلال الثلاثينات من نجاحها فى التوفيق بين مصالح الرأسماليين والعمال فى اطار ما أســـمته بالدولة الموحدة ، بينما فى الحقيقة « لم يتم توفير ضمانات لتمثيل العمال وكانت سياسة الدولة تخدم عادة مصالح الاحتكارات الكبيرة (٤٧) » •

من جهة أخرى ، كان تأثير الثورة الصناعية على الدول الأوروبية متفاوتا أى أن بعض المناطق والفئات الاجتماعية استفادت كثيرا بينما ظلت بعض البيئات الزراعية والمدن الصغيرة فى حالة تخلف نسبى مما أشعل صراعات اقتصادية واجتماعية • لهذا أيدت بعض الطبقات الأوضاع والمبادىء التى تمخض عنها النظام الجديد مثل المذهب الفردى والتبرير الأخلاقى للأنانية المصاحبة للرأسمالية ، بينما عارضتها طبقات أخرى وان كانت معارضة بعضها كالبرجوازية الصغيرة مثلا ذات طبيعة مزدوجة فهى لا تتعاطف تماما مع النظام الجديد ولكنها تخشى أيضا بل وتعادى القوة المنظمة الصاعدة للطبقات العاملة •

هنا تبدو لا مبدئية زعماء الفاشية والنازية • فقد كان عليهم أن يخاطبوا هم أيضا — كما فعل مفكرو الصهيونية من قبلهم — كل طبقة اجتماعية بطريقة ترى فيها ضمانا لمصالحها • فى ايطاليا مثلا ، تبنى موسولينى فى مرحلة مبكرة بعض آراء السنديكالية الثورية التى نادى بها المفكر الفرنسى جورج سوريل من أجل تبوؤ نخبة جديدة قيادة الطبقة العاملة الى مرحلة أعلى من التاريخ والحضارة فى مواجهة حكم الأغنياء • فى مرحلة تالية وعندما سنحت الظروف قدمت الفاشية نفسها للرأسمالية الايطالية بصفتها الدرع الواقى من أية مبادىء ثورية أو قلاقل قد تحدث بسبب الظروف الصعبة بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى • المهم أنه سواء فى ايطاليا أو فى ألمانيا كان زعماؤها يحرصون كما لاحظ أحد علماء الاجتماع(٤٨) على استخدام عبارات غامضة يمكن عند تفسيرها اثبات عدة أطروحات متعارضة فى نفس الوقت كاحترامهم للملكية الفردية ومعادة الرأسمالية ، والمحافظة على مصالح الفئات الدنيا ، وتهدئة روع المزارعين بسبب انخفاض أسعار منتجاتهم الزراعية واهمال سلطات العاصمة لهم ، وتأمين مستقبل الحرفيين المهرة ••• الخ • كل ذلك يمكن أن نستشفه من مقولة موسولينى : « نحن نسمح لأنفسنا بترف كوننا ••• محافظين وتقدميين ••• رجعيين وثوريين ••• حسب مقتضيات الوقت » وخلافا للسياسات العامة وضرورات تحديد المواقف التى كانت تحتاج مثل تلك التعمية ، لم يكن هؤلاء الزعماء

يخفون عـداءهم للمبادىء الديمقراطية واحتقارهم للجماهير الشـعبية واستخفافهم بها بل وكراهيتهم للدين المسيحى نفسه (٤٩) متأثرين فى ذلك بآراء الفيلسوف الألمانى فريد ريش نيتشه كما سيأتى شرحه •

لقد وصل الهوس بموسولينى وهتلر درجة الظن بأنهما وصلا الى ما تخيله نيتشه عن الانسان الأعلى المتفوق Superman • وكـان من الطبيعى أن تحل مشاعر الهوس والعظمة على الزعماء الصغار حولهما الذين كانوا يعلنون أنهم غير مسئولين أمام الشـعب وانما الشعب هو المسئول أمام القـادة • وهؤلاء بدورهم غير منتخبين ويتوقف تعيينهم على رضا ومصالح الديكتاتور • أما النظام المطبق فى كل المجالات فهـو النظـام العسكرى الذى يفرض الطاعة على أفراد الشعب • ففى ايطاليا رفعـوا شعار : « عليك أن تؤمن بالفاشية ، عليـك أن تطيـع ، وأن تقاتل » • والشعار الآخر ذو المغزى الذى يكشف عن الرغبة فى خلق قطيع مدرب وليس شعبا واعيا هو « موسولينى دائما على حق » (٥٠) •

رغم المبالغات اللفظية وتملق مشاعر الجماهير وترديد عبارات جوفاء عن البطولة والتضحية ، أثبتت الأحداث أن الحركات الفاشية والنازية رجعية وعدوانية تتستر وراء شعارات معادية للسامية حينا أو معـادية للماركسية والديمقراطية أحيانا أخرى بهدف ترويج خيالات مريضة تحلم ببسط سيطرة « الأمة الايطالية » على الأمم الأخرى ، أو فرض استعمار « العنصر الآرى المتفوق » كما يتصور الفكر النازى على القوميات والأجناس الأخرى غير البيضاء التى أسماها أجناسا منحطة • وتتبنى الأيديولوجيتان مبدأ الغاية تبرر الوسيلة كما تتشابهان فى التعليل المنطقى والسلوك الذى يعتمد على المزج بين الدعـاية والعنف وتبنى الأسـاليب الثورية المزيفة لاجتذاب الكتل الشعبية • لهذا يقال أحيانا أن النازية هى الشكل الألمـانى للفاشية ، وأنهما وريثتان لفكر عنصرى شاذ عرفته البشرية من قبل (٥١) • فقد استعانت النازية مثـلا ببعض الفروض البيولوجية والأنثروبولوجية

لبعض النظريات العنصرية لمحاولة اثبات تفوق العنصر الأبيض كنظريات جوزيف آرثر والكونت دو غوبينو وريتشارد فاغنر وهاوستون تشامبرلين •

واذا أردنا اثبات صحة ما افترضناه فى بداية هذا البند من أنه ليس هناك أيديولوجيات أولى بالتصنيف مع بعضها البعض من الصهيونية والفاشية والنازية لكان كافيا التذكير بالمحاولات الدائبة لمفكرى عقيدة الجماعة اليهودية وثقافتها من أجل التلقين المستمر لليهود وللتأكيد على خصوصيتهم واختيارهم مع تعميق نزعات الاستعلاء على الأمم والشعوب الأخرى وتشجيع العزلة بينهم ومن ثم تحويل اسرائيل كلها الى ما أسماه المفكر اليهودى تامارين بالخيتو الجيوبوليتكى أو القلعة المحاصرة بالأعداء • ويبدو التماثل بين الأيديولوجات الثلاث أيضا فى قلب المفاهيم والمصطلحات المتعارف عليها • فهذا ناحوم غولدمان الرئيس الأسبق للمنظمة الصهيونية العالمية يدعى رغم ما هو معروف عن عنصرية الصهيونية بأنها : « واحدة من أكثر الأفكار ثورية فى التاريخ الحديث » (٥٣) •

يفند علماء يهود آخرون هذه المزاعم ويحذرون من مغبة السياسات الصهيونية المتعصبة الرامية الى تعميق « الطابع اليهودى للدولة » واصفين تلك السياسات بأنها شكل من أشكال الاصرار على النقاء العرقى والعزلة وأنها شبيهة بالأفكار النازية السابقة للنقاء العرقى وما كانت تنادى به من ضرورة تطهير ألمانيا من اليهود • إن صعود عقلية الخيتو الى مرتبة الأيديولوجية الرسمية هو قمة الدراما الصهيونية لأنها أصابت القوى الديناميكية لجيل الصابرا فى اسرائيل بشلل تام وهو الذى كان من المفروض — فى رأى هؤلاء المفكرين — أن يكون عدة المستقبل لليهود فى تمزيق الحواجز المهترئة والعقبات التقليدية • وأخيرا ، فان أحد أوجه التشابه الهامة بين الصهيونية والفاشية والنازية ، والذى كان ولا يزال له تأثير كبير على المواجهة المستقبلة بين الصهيونية والاسلام ، هو الطبيعة التحريضية للدعاية الاسرائيلية التى تمثل خطرا دائما على الاستقرار الاقليمى وعلى محاولات الانبعاث الاسلامى وجهود التنمية • لاثبات صحة ذلك نستشهد

بنقد المفكرين اليهود الذين اتهموا الصهيونية بأنها استنفذت نفسها فى محاولة ترسيخ مفاهيم زائفة فى أذهان جيل الصابرا الناشىء وسكان اسرائيل عموما تزيف الواقع وتخلق مناخا عدوانيا مريضا يصور كل الأمم والشعوب على الجانب الآخر من الأسوار المقدسة للخيتو بأنها مزيج من النجاسة والكراهية والعادات المرذولة (٥٣) •

(ب) تنظر الفاشية والنازية للدين نظرتها الى التعليم أو أية مؤسسة أخرى عليها أن تخضع لجهاز الدولة وأن تكون أداة طيعة من أدواته السياسية • ومع أن هاتين الأيديولوجيتين وجدتا تعاونا صادقا من بعض رجال الدين الا أن زعماء النازى خاصة كانوا يكنون مشاعر الازدراء لرجال الكنيسة وهو ما عبرت عنه مذكرات غوبلز الذى أشار اليهم بصفتهم أكثر الرعاع اثارة للاشمئزاز (٥٤) • لا غرابة اذن أن تتبنى الفاشية والنازية نفس أسلوب اللامبدئية والغموض فى مواقفها من القيم الروحية والدين كما فعلت ازاء القيم الأخلاقية والسياسية وهو ما سنستعرضه من خلال العلاقات المتوترة بين الطرفين فى أكثر من دولة • فى ايطاليا ، اتبع موسولينى لفترة طويلة أسلوب عدم الاكتراث بالدين مع توجيه هجوم قاس الى الكنيسة أثناء عمله الصحفى • ولم يتوقف هجومه عليها الا عام ١٩٢٢ عندما تخلى عن المطالبة بتأميم مصادر الثروة وتحالف مع الاحتكارات الكبرى • وهناك شبه اجماع بين الدارسين لتطور الفاشية على أن ذلك الموقف المتهاون مع الكنيسة لم ينتج عن تغيير موقفه من الدين بقدر ما كان موقفا تكتيكيا اقتضته طبيعة المصالح والتحالفات الجديدة • بعد استيلاء موسولينى على السلطة ، أساءت الكنيسة الكاثوليكية (وكذلك ما يسمى بهيئة العمل الكاثوليكى) تفسير الخطوات التى أقدم عليها من حيث اعادة التعليم الدينى والاعتراف بالجامعة الكاثوليكية وظنوا أن التحالف مع الفاشية لن يحافظ فقط على المواقع التى اكتسبوها ، وانما سيساعدهم أيضا على استعادة نفوذهم فى المجتمع (٥٥) ولم يفطنوا الى أن موسولينى أقدم على تلك الخطوات لمجرد استغلال نفوذهم لدى بعض فئات الشعب لمصلحته •

تورطت فى نفس الموقف غير الواعى الدوائر الكنسية فى بعض الدول الأوروبية الأخرى مثل بلجيكا وأسبانيا والتى ظنت أن رفع الفاشية والنازية لشعارات معادية للماركسية والليبرالية كاف للشهادة لهما بصدق الايمان الدينى • وقد كانت هذه الظاهرة واضحة خلال الثلاثينات اذ اتجهت تلك الدوائر الكنسية الى منح بركاتها للحكومات التى ركبت الموجة الفاشية السائدة فى بعض دول أوروبا آنذاك وتمخض عنها ما يمكن تسميته بالنظم الفاشية الكنسية • وكما هو الحال بالنسبة للفاشيين والنازيين الأقحاح وموقفهم الحقيقى من الدين ، فان مثل تلك النظم لم تكن تحظى منهم الا بكل استخفاف (٥٦) • قد يعزى ذلك فى جانب منه الى تأكيد الفاشية والنازية على الطابع السلطوى الاستبدادى للدولة ومن ثم اصرارها على ضرورة الفصل بين الدين والدولة • ومن جانب آخر ، تعانى السياسة الفاشـــية المعادية للكنيسة من حساسية خاصة ازاء الطابع العالمى الذى يمنحـــه الفاتيكان لنفسه ويتدخل بموجبه أحيانا فى السياسات الداخلية للدول الأخرى •

ولما كانت الاصطلاحات والعبارات الفاشيةالغامضة تسمح باتخاذ موقف معاد من الدين أو مؤيد له حسب الأحوال ، فاننا نجد فى رومانيا فى مرحلة ما قبل الحرب العالمية الثانية نموذجا فريدا لتنظيم فاشى ذو توجه دينى أملته الظروف الخاصة بتلك الدولة حيث كانت الكنيسة الأرثوذكسية ذات الجذور الريفية القوية تواجه التحدى القادم من العاصمة بوخارست متمثلا فى التقاليد الحضرية للعاصـــمة وبورجوازيتها العلمانية وجاليتها اليهودية القـــوية (٥٧) •

ونعتقد أن لهذا النموذج أهمية خاصة لأنه يثبت الفروض التى طرحناها بشأن الفاشية والنازية والصهيونية • ففى حالة رومانيا ، استخدم التنظيم الفاشى (المسمى فيلق رئيس الملائكة القديس ميشيل) الدين فى الصراع السياسى الداخلى عن طريق ربط شعارات العداء للماركســـية والسامية والليبرالية بعبارات غامضة عما أسماه بالمسيحية الايجابية للايهام بدفاعه عن التراث المسيحى الذى يربطه بتقاليد الثقافة القومية •

الخلاصة أنه ليست لدى الفاشيين أو النازيين سياسة واحـدة أو مبادىء محددة يسترشدون بها • فما قد يصلح لرومانيا كدولة فى شرق أوروبا ذات قطاع زراعى عريض لا يصلح لدولة أوروبية صناعية تحولت فيها شرائح اجتماعية كبيرة الى العلمانية وفقدت علاقتها بالكنيسة أو الدين أو بكليهما • فى هذه الحالة الثانية وهى تمثل الوضع الأكثر انتشارا فى أوروبا الثلاثينات فاننا لن نصادف النموذج الرومانى وانما سنجد أحزابا فاشـية أو نازية حريصـة تماما على قطع كل عـلاقة لهـا بالدين حتى لا تفتقد التأييد الجماهيرى •

بالاضافة الى ما سبق ، لم تكن الفاشية أو النازية لتتورع عن تأليب الجماعات والمذاهب الدينية على بعضـها البعض اذا كان فى ذلك فائدة لأهدافها • ففى ألمانيا مثلا ، ومن أجل أن تحكم النازية قبضتها على الجماهير على حساب كل القوى السياسية والدينية الأخرى لم تتوان عن الاستفادة من حساسيات تاريخية ترسبت منذ أيام بسمرك ، واستغلال مشاعر عدم الثقة الكامنة ضد الكاثوليك لدى البورجوازية الألمانية البروتستنتية فى الشمال • وفعلا أحرزت النازية مكاسـب سياسية تمثلت فى التأييد الذى حصلت عليه من بعض رجال الدين البروتستانت والمدرسين والطلبة • أكثر من ذلك ، لو أمكن تحقيق منفعة من مهاجمة الدين نفسه والتعريض به لما كان هناك مانع كما نلاحظ مثلا فى محاولات تعظيم التراث الجرمانى القديم الذى يعتبر هاما بالنسبة للمنطلقات النازية فنجدها تربط بين الهوس العنصرى وبين الأساطير التقليدية السابقة على المسيحية وذلك من خلال الفكر الجرمانى الشعبى • وتشير دراسات بعض العلماء الى وجود نغمـة واضحة معادية للمسيحية فى ثنايا الأيديولوجية النازية (٥٨) •

تعقيـب :

يحتاج تفنيد مواقف هذه الأيديولوجيات الثلاث الى كتاب مستقل وهو ليس غرضنا فى هذه العجالة • لهذا سنركز على بعض النقاط البارزة فقط • على الصعيد الفكرى ، يتناقض الاسلام تناقضا جذريا مع الصهيونية

والفاشية والنازية من حيث الحجج والأساليب والأهداف والسياسات والنظرة المستقبلية •

— من حيث الحجج التى استندت اليها الأيديولوجيات الثلاث ، يرفض الاسلام عقد التعالى والغطرسة التى عبرت عنها كل منها لادعاء سمو اليهود على الأمم الأخرى ، وأوهام السيطرة على العالم واخضاع الشعوب إما للأمة الايطالية التى رفعتها الفاشية الى مرتبة الأسطورة ، واما اخضاعها للعنصر الأعلى المتفوق وهو العرق الآرى الذى قدسته النازية •

يرفض الاسلام ويدين كل تلك الخيالات المريضة للتفوق والمستندة حينا الى أن كل من ليس بيهودى هو مزيج من النجاسة والكراهية والعادات المرذولة ، أو الى حق تاريخى مزعوم لسيطرة الأمة الايطالية لأنها الوريثة الروحية للامبراطورية الرومانية التى سادت العالم القديم مرتين ، أو الى الزعم بأن خلاص البشرية لن يتم الا على يد العنصر الآرى « الخالق للثقافة » بعد تغلبه على الأجناس البيضاء الأخرى « الحاملة للثقافة » ثم اخضاع الأجناس الملونة « المدمرة للثقافة » والتى تسميها النازية بالأجناس الدنيا المنحطة •

على العكس من ذلك تماما ، لم يفرق الاسلام بين لون ولون أو بين عرق وآخر عندما اتخذ الله الانسان عامة ودون تمييز كخليفة له فى الأرض لاعمارها واتمام الابداع الالهى • « واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة (٥٩) » • كذلك فان النظر الى المحكومين على أنهم قطيع مغاير تماما لمفهوم الاسلام • يقول الله سبحانه وتعالى « وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم (٦٠)» • فالبشرية متحدة فى النسب وترجع الى أب واحد وأم واحدة • ولم يكن القصد الالهى بالخلق أن تحط جماعة من قدر جماعة أخرى وانما التعارف والمحبة لأنه لا فضل لقبيلة أو جنس أو بلد الا بالأعمال الصالحة التى أوضحها القرآن فى أكثر من موضع • وشتان بين تحويل الصهيونية والفاشية والنازية شعوبها الى قطيع وآلات

صماء أقرب الى الحيوانية وبين ما أراده الله للبشر من تفضيل حتى على كثير من مخلوقاته العاقلة • « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا (٦١) » • وينفى القول الالهى بتكريم بنى آدم بحسن الصورة والاستواء وكمال التركيب واعتدال المزاج وتوفر المواهب العقلية ينفى كل ذلك مزاعم تلك الأيديولوجيات التى فرقت بين أجناس سامية وأخرى منحطة • يقول تعالى : « لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم » (٦٢) •

— من حيث الأساليب ، يتناقض الاسلام جذريا مع تلك الأيديولوجيات الثلاث التى تصرفت على أساس ان الغاية تبرر الوسيلة • فقد أوضحنا أعلاه الأساليب الانتهازية واللامبدئية وخرق كل الأعراف واستباحة كل القيم من أجل التحايل والاقناع • بينما يشرح الله لرسوله صلى الله عليه وسلم أساليب الاقناع بالحكمة المشفوعة بالأدلة ويأمره بالموعظة الحسنة المعتمدة على العبر المستخلصة مع اللجوء الى أحسن الطرق فى المناقشة والجدال • « أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » (٦٣) •

إن تاريخ النظم السياسية المتأثرة بتلك الأيديولوجيات غنى عن التعريف ، ويكشف كيف يلجأون الى ممارسة القهر والعدوان دون تمييز عندما تفشل مقولاتهم الضعيفة وحججهم الزائفة فى الاقناع • أما الاسلام فيدعو الى التعاون على البر والتقوى وليس على الاثم والعدوان • وفيما عدا الجهاد ، يحرم القرآن الكريم صراحة البدء بالحرب وانما فقط رد العدوان • « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » • « فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين ، فان انتهوا فان الله غفور رحيم وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين » « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله » (٦٤) •

— من حيث الأهداف ، يدعى بن غوريون رئيس الوزراء الصهيونى الأسبق أن « ما ضمن بقاء اليهود وأدى الى انشاء الدولة هو رؤيا المسيح المنتظر لدى أنبياء بنى اسرائيل ، ورؤيا خلاص الشعب اليهودى ومعه الانسانية جمعاء • ودولة اسرائيل هى أداة تحقيق هذه الرؤيا عن المسيح المنتظر » • لقد قدمنا الأدلة الكافية أعلاه لاثبات مدى استغلال الصهيونية للدين اليهودى ليس عن ايمان به وانما لتحقيق أهداف الحركة الصهيونية التى يعترف معظم قادتها اما بالحادهم أو بان الدين مجرد وسيلة نفعية لتحقيق الأهداف السياسية • أى أن ما يذكرونه عن الرؤيا والأنبياء الى آخره هى مجرد وسائل لتحقيق المخططات المرسومة سلفا من قوى دولية لا تقيم وزنا كبيرا لهذه الأسماء والمعانى السامية • وعلى ضوء ما تكشف من ارتباطات اسرائيل الدولية ودورها الحقيقى كمجرد أداة فى مواجهة الأمة الاسلامية ، نستطيع أن ننزع باطمئنان أحد الأقنعة التى تختفى وراءها وهو القناع الدينى المزيف • ان ضحالة الفكر الصهيونى المعاصر تبدو فى أن هدفه الأسمى (وهو لم شمل اليهود) هدف قبلى محدود خال من القيم الرفيعة والأهداف النبيلة التى تلهم البشر فى كل مكان بغض النظر عن الجنس أو اللغـــة أو اللـــون •

بالمثل ، تلتقى الفاشية والنازية مع الصهيونية حول ضحالة وعدوانية الأهداف التى تتوخاها جميعا • فهؤلاء يحلمون بحق تاريخى فى تحقيق سيطرة الأمة الايطالية وأولئك يزيفون أدلة بيولوجية وأنثربولوجية لاثبات نقاء العرق الآرى وحقه فى اخضاع الأجناس الأدنى بهدف خلاص البشرية على حـــد زعمهم •

يختلف الاسلام عن ذلك اذ سعى الى تحقيق أهداف سامية تليق بخاتم الرسالات السماوية وتضمن سعادة البشر دون تفرقة فى الحياة الدنيا وفى الآخرة عن طريق قيام الانسان بالتكاليف التى حملها وتأدية الأمانة المترتبة على استخلافه فى الأرض • وقد اتخذ الاسلام لذلك سبيل تهذيب الانسان والمآخاة بين طبيعتيه المادية والروحية وعلمه كيف يفكر ويعيش وكيف يتعامل

مع ربه ومع نفسه ومجتمعه لأن الله ما خلق الانسان تلهيا ولعبا أو دون غاية وانما لهدف حكيم • « أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون (٦٥) » • وكما يعلم الاسلام البشر كيف يضمنون السعادة فى الدنيا باتباع الوسائل السوية والالتزام بالقيم الأخلاقية ، فانه يرشدهم الى كيفية تحصيل السعادة فى الآخرة بالاستعداد لها لضمان مرضاة الخالق • ولا يتأتى ذلك الا بمخافة الله والنظر فيما قدموا ليوم القيامة حتى لا يكونوا كالذين نسوا حق الله فأنساهم أنفسهم • « لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون » (٦٦) •

— من حيث السياسات التى تحدد العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، نقف أمام المنطق المقلوب الذى زين لزعماء الفاشية والنازية أنهم غير مسئولين أمام أية شريعة أو مؤسسة ، وأن الشعب هو المسئول أمامهم • هذه المشاعر الشاذة بالعظمة والغرور ، علاوة على تعبيرها عن الشرك على مستوى هؤلاء الزعماء ، أدت الى تأثيرات مدمرة على السلوك والأوضاع السياسية بما أدت اليه من فرض ديكتاتوريات عسكرية لا تتوقع الا الطاعة العمياء من أفراد الشعب • واذا كان سجل الفاشية والنازية معروف فى هذا المجال ، فان الصهيونية لا تختلف عنهما الا فى الاطار الذى يتم فيه القمع حتى يتلاءم مع ارتباطاتها « الديمقراطية » فى الخارج • يمكن الرجوع الى أمثلة لا حصر لها عن وسائل العنف من سجن ومحاولات اغتيال واضطهاد ضد اليهود أنفسهم داخل اسرائيل الذين يتجرأون على كشف أو معارضة الممارسات الفاشية الصهيونية (٦٧) • وشتان بين كل تلك المفاهيم والسلوكيات السياسية المتخلفة وبين أسلوب الحكم الفريد الذى عرفه الاسلام فى ظل الخلافة الرشيدة وفى بعض الفترات الأخرى من الحكم الاسلامى حيث خضع الحاكم والمحكوم للدستور الالهى وحيث لم تكن هناك طاعة لمخلوق فى معصية الخالق وحيث لا كبرياء ولا عظمة الا لله سبحانه •

— من حيث النظرة المستقبلية ، وعلى ضوء ضحالة وعدوانية الأهداف التى تبنتها الأيديولوجيات الثلاث فاننا لا نتوقع خيرا من تصورها

للمستقبل وان كانت التضحيات البشرية الجسيمة قد تمكنت من القضاء على اثنتين من الأيديولوجيات الشقيقة الثلاث • وهل هناك ضحالة أكثر من تزييف الارادة الالهية بالادعاء بأن مصير البشرية معلق بعودة اليهود المشردين الى فلسطين ، أو بأن خلاص الانسانية رهن باخضاعها واذلالها لتلك الأمة أو ذلك العرق ؟

تختلف نظرة الاسلام الى المستقبل عما سبق • فطريق الوصول اليه وضمان الارتقاء فيه ليس مرتهنا بخرافات أو بعقد عنصرية وانما بالتماس العلم كما أمر الله • وفى هذا ما يثبت بعد نظر الاسلام اذ أن البشرية عرفت كثيرا من الرؤى المستقبلية الزائفة والأوهام المشابهة لما نادت به تلك الأيديولوجيات الثلاث • ثم ضاعت الرؤى وتبددت الأحلام وثبت أن تقدم الانسان منذ عرف العلم لم يتحقق الا من خلال الرؤية التى حددها الاسلام أى بالسير فى مناكب الأرض واكتشاف غوامض الكون • لهذا يوجه القرآن الكريم الانسان الى السعى فى هذا الطريق ويستحثه على مزيد من التفكير والجهد لقوله تعالى : « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » (٦٨) • وهو القائل سبحانه : « وقل رب زدنى علما » (٦٩) •

تم بحمد الله

الاسلام فى مواجهة الأيديولوجيات والفلسفات المعاصرة

الحـــواشى

1. Vernon Van Dyke : Political Science (A Philosophical Analysis), London, 1960, pp. 172; 173; C. Sumner : Reading Ideologies, London, N.Y., 1979; H.M. Drucker : The Political Uses of Ideology, London, 1974; W.T. Bluhm : Ideologies and Attitudes, New Jersey 1974; Moustafa Rejai, ed., Decline of Ideology, Chicago 1971; Ernest Nolte : Three Faces of Fascism, N.Y. 1965; H. Madelin : «Les idéologies se portent bien», Project 112, Paris, Fev. 1977; François Chatelet, ed., Histore des idéologies, Paris 1978.

محمد محمود ربيع : الأيديولوجيات السياسية المعاصرة ، الكويت ١٩٧٩ ، ص ١٤ — ١٧ .

2. George H. Sabine : A History of Political Theory, Third ed., London 1961, pp. 740, 741, 674.

3. Muhammad M. Rabie : «Regionalism and Universalism in Political Thought» in : L'Egypte Contemporaine, No. 338, Oct. 1969, pp. 330, 331.

٤ — توفيق الطويل : أسس الفلسفة ، ط ٦ القاهرة ١٩٧٦ ، ص ٢٤٥ — ٢٤٧ .

5. Arnold Brecht : Political Theory (The Foundations of Twentieth Century Political Thought), Princeton, N. J. 1959, pp. 532, 533; Jon D. Wisman : «Legitimation, ideologycritique, and economics» in : Social Research, 46 (27, Summer 1979, pp. 291 ff.;

زكريا ابراهيم : مشكلة الفلسفة ، القاهرة ١٩٧١ ، ص ٨٠ ، ٨١ .

6. August Comte : Cours de Philosophie Positive, Paris 1840-42, translated as : The Positive Philosophy of A. Comte, by H. Martineau, London 1853, Reproduced by Henry Aiken : The Age of Ideology (The 19th Century hilosophers), N.Y. 1956, pp. 124 ff., 118 ff.;

محمود قاسم : المنطق الحديث ومناهج البحث ، ط ٥ ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٣٩٨ وما بعدها .

٧ — المرجع السابق ، ص ٣٩٩ ،

7. A. Aiken : The Age of Ideology, op. cit., pp. 118-120.

٨ — Ibid., pp. 122, 123;

9. Rudolf Carnap : The Logical Syntax of Language, London 1959 (first publ. 1937), p. 280;

زكى نجيب محمود : نحو فلسفة علمية ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٦ ، ٧ ، أحمد أمين ، زكى نجيب محمود ، قصة الفلسفة الحديثة ، القاهرة ١٩٣٦ ، الجزء الأول ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، توفيق الطويل ، أسس الفلسفة ، مرجع سابق ص ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٨٦ — ٢٨٩ ، زكريا ابراهيم ، مشكلة الفلسفة ، القاهرة ١٩٧١ ، ص ٧٤ ، ٧٥ .

10. William James : Pragmatism (and four essays from the meaning of Truth), Meridian, Cleveland and N.Y. 1963, first printing of combined edition 1943, p. 42.

11. Ibid., p. 192.

12. B. Russel : History of Western Philosophy (and its Connection with Political and Social Circumstances from the Eerliest Times to the Present Day), London 1948, p. 846.

13. W. James : Pragmatism, op. cit., p. 193.

14. Morton White : The Age of Analysis (The 20th Century Philosophers), Mentor, N.Y., 8th printing 1963 (first publ. 1955), p. 117;

— ريجيس غوليفيه : المذاهب الوجودية (من كيركجارد الى جان بول سارتر) ، تعريب فؤاد كامل ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٢٣ — ٢٥ .

15. A. Camus : Le Mythe de Sisyphe, Paris 1942, p. 15;

أورد النص الدكتور زكريا ابراهيم ، مشكلة الفلسفة ، مرجع سابق ، ص ٦٥ ، كذلك ريجيس غوليفيه : المذاهب الوجودية ، مرجع سابق ، ص ٨ ، ٦٦ . والجدير بالذكر أن بعض الاحصاءات التى نشرت فى فرنسا خلال ١٩٨١ تشير الى ارتفاع كبير فى نسبة الانتحار بين الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين ١٥ — ٣٤ عاما وكذلك بين النساء فى الشريحة ١٥ — ٤٤ عاما . وقد بلغ عدد ضحايا الانتحار خلال عام ١٩٨٠ عشرة آلاف نسمة فى فرنسا ، واثنا عشر الفا فى المانيا الغربية . وقد ارتفع عدد المنتحرين فى فرنسا حتى أصبح

يمثل ثلثى عدد القتلى فى حوادث المرور . ونحن وان كنـــا نتفق مع تفسير الاحصائية التى تعزو ازدياد حوادث الانتحار الى تفاقم أزمة البطالة التى أدت الى طرد ٩ ملايين عامل فى أوروبا الغربية ، الا أننا لا نستبعد التأثير الضار لبعض أنمـــاط الثقافة السائدة والفلسفات الانهزامية وفقـــد الايمـــان على نفسية الأفراد فى مثل هذه الأوقات العصيبة حيث يتلفتون حولهم فلا يجدون سوى نبرات التشاؤم والحزن والتشكيك فى قيمة الحياة واليأس من رحمة الله . هنا يتضح الدور السياسى للوجودية ولأمثالها من الفلسفات التى تفضل اتجاه أفراد شعوبها الى الانتحار بدلا من معرفة أوجه الخلل فى مجتمعاتهم فيقومون بتغييرها مما قد يضر بتوازنات القوى الهشة بين الفئات الاجتماعية .

١٦ — ريجيس غوليفيه : المذاهب الوجودية ، مرجع سابق ، ص ٤ — ١٢ .

١٧ — راجع المزيد من التعليقات فى المرجع السابق ، ص ٦ ، ٧ وخاصـــة سيمون دوبوفوار عن الأدب والميتافيزيقا : مجلة العصور الحديثة ، ابريل ١٩٤٦ ، ص ١٥٩ ، ١٦٠ ، تراوغونتين ، اختيار جان بول سارتر ١٩٤٥ ، ص ٣٩ وما بعدها .

18. Jean-Paul Sartre : L' Existentialisme est un humanisme, tr. by Philip Mairet as Existentialism and Humanism, reproduced in, M. White : The Age of Analysis, op. cit., pp. 123, 124.

19. E. Bréhier : Les Thèmes Actuels de la Philosophie, Paris 1954, pp. 69 ff.

استشهد به الدكتور توفيق الطويل : أسس الفلسفة ، مرجع سابق ، ص ٨٤ ، ٨٥ .

20. M. White : The Age of Analysis, op. cit., pp. 128, 129.

٢١ — لمزيد من التفاصيل انظر جورج بوليتزير : المادية والمثالية فى الفلسفة ، تعريب اسماعيل المهداوى ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٥ ، ١٦ ، ١٩ ، كذلك توفيق الطويل : أسس الفلسفة ، مرجع سابق ، ص ٢٣٧ — ٢٤٠ .

21. M. Rosenthal, P. Yudin, eds., A Dictionary of Philosophy, Moscow 1967, pp. 115, 316, 194, 280; D. Runes, ed., Dictionary of Philosophy, 15th revised ed., New Jersey 1965, pp. 75, 209, 129, 189.

22. Friedrich Engels : «Ludwig Feuerbach and The End of Classical German Philosophy» in : Marx Engels Selected Works, Vol. 2, Moscow 1955, p. 372.

٢٣ — بوليتزير : المـادية والمثالية فى الفلسفة ، مرجع سابق ، ص ١٤، ١٥ كذلك جماعة من العلماء السوفيت : المادية الديالكيتكية ، تعريب السباعى ومرعى وجاموس ، ط ٣ ، دمشق ١٩٧٣ ، دمشق ١٩٧٣ ، ص ١٥ .

24. F. Engels : Anti Dühring (Herr Eugen Dühring's Revolution in Science), Moscow 1954, pp. 457, 458.

٢٥ — محمد محمود ربيع « موقع العقيدة من الفكر الصهيونى » فى : المجلة القانونية — التونسية ، العدد الأول ، تونس ١٩٧٩ ، ص ٤٥ .

26. Georges Tamarin : The Israeli Dilemma (Essays on a Warfare State), Rotterdam 1973, pp. 13, 14.

٢٧ — أورد النص جورج كونيو : المشكلة المدرسية عام ١٩٤٨ وقانون فالو ص ١٨٦ — استشهد به بوليتزير ، بيس ، كافين : المبادىء الأساسية للفلسفة ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ١٨ ، ١٩ .

٢٨ — سورة القصص ، ٧٧ .

٢٩ — سورة الأعراف ، ٣٢ .

٣٠ — سورة المؤمنون ، ٥١ .

٣١ — سورة طه ، ١ .

٣٢ — سورة البقرة ، ٢٣ ، ٢٤ .

٣٣ — سورة يونس ، ٣٤ ، ٣٥ .

٣٤ — سورة الاسراء ، ٥٦ .

٣٥ — بوليتزير : المادية والمثالية فى الفلسفة ، مرجع سابق ، ص ٥٧ ، ٥٨ ، توفيق الطويل : أسس الفلسفة ، مرجع سابق ، ص ٢٥١ ، محمد محمود ربيع : الأيديولوجيات السياسية المعاصرة ، مرجع سابق ، ص ٨٠ ، ٨١ .

٣٦ — سورة الحج ، ٧٣ ، ٧٤ .

٣٧ — « موقع العقيدة من الفكر الصهيونى » ، مرجع سابق ، ص ٤٥ ، الأيديولوجيات السياسية المعاصرة ، مرجع سابق ، ص ٨٢ ، أزمة الفكر الصهيونى المعاصر ، القاهرة ١٩٧١ ، ص ١٦١ .

38. Theodor Herzl : The Jewish Cronicle, Aug. 11, 1911, p. 14, quoted by Alan R. Taylor : The Zionist Mind (The Origins and Development of Zionist Thought), Beirut 1974, p. 64; also Herzl : The Jewish State (An Attempt at a Modern Solution of The Jewish Question), London 1943, first publ. 1896.

39. Max Nordau : «Zionism» 1902, in : Arthur Hertzberg, The Zionist Idea (A Historical Analysis and Reader), N.Y. 1966 (first publ. 1959), pp. 242, 243;

كذلك : الفكرة الصهيونية (النصوص الأساسية) ، مركز الأبحاث ، منظمة التحرير الفلسطينية بيروت ١٩٧٠ ، ص ١٢٩ ، ١٣٧ .

40. J. Klatzkin : «Boundaries» 1914 - 1921, in : The Zionist Idea, op. cit., pp. 65, 317.

41. H. M. Kallen : «Jeiwsh Life is National and Secular» 1918, Ibid., pp. 527, 528, 525, 526.

42. Kallen : «Jewish Unity» 1933, Ibid., pp. 531, 532.

43. William Schlamm : Wer ist Jude? also, A. Antonovski : Political and Social Attitudes in Israel.

استشهد بهما الدكتور اسعد مرزوق : الدولة والدين فى اسرائيل ، دراسات فلسطينية ، ٣٧ ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ١٣٦ ، ١٣٧ .

٤٤ — محمد محمود ربيع : أزمة الفكر الصهيونى المعاصر ، مرجع سابق ، ص ٩٩ ، ١٠٠ .

45. Leonard Fein : Politics in Israel, Toronto 1967, p. 51.

46. G. H. Sabine : A History of Political Theory, op. cit., pp. 888 - 895; Elizabeth Wiskeman : Fascism in Italy (Its Development and Influence), London 1969, p. 35.

47. L. Rosenstock - Franck : L'économie corporative fasciste en doctrine et en fait, Paris 1934; also G. Salvemini : Under

the Axe of Fascism, London 1936, p. 420, cited by Adrian Lyttelton : «Italian Fascism» in : Walter laqueur, ed., Fascism (A Reader's Guide), Pelican 1979 (first publ. 1976), p. 99.

48. Juan J. Linz : «Some Notes Toward a Comparative Study of Fascism in Sociological Historical Perspective» in : W Laqueur : Fascism, op. cit., pp. 34, 35.

49. G. H. Sabine : A History of Political Theory, op. cit., p. 892.

50. Ibid., p. 892.

51. Roland Pennock, D. Smith : Political Science (An Introduction), N.Y. 1964, p. 556; Adolf Hitler : Mein Kampf, pp. 316 - 318, 329, quoted by Joachim Remak : The Nazi Years (A Documentary History), Englewood Cliffs, N.J. 1969, pp. 33, 34, 36, 37; Sabine, op. cit., pp. 905 ff.;

انظر مقارنة ونقد لهذه النظريات العنصرية فى المؤلفين التاليين : ازمة الفكر الصهيونى المعاصر ، ص ١٥٤ ،

M. M. Rabie : The Polritical Theory of Ibn Khaldun, Leyden 1967, pp. 60, 61.

52. Nahum Goldman : «The Psychology of Middle East Peace» in : Foreign Affairs, N.Y., Vol. 54, 1, Oct. 1975, p. 113.

53. Pierre Demeron : Contre Israel, Paris 1968, pp. 43, 44; G. Tamarin : The Israeli Dilemma, op. cit., pp. 10, 12.

54. Sabine : A History of Political Theory, op. cit., p. 916, also footnote 33; Alan Cassels : Fascist Italy, London 1969, p. 63.

55. Mario G. Rossi : «La chiesa e le organizzazioni religiose», quoted by A. Lyttelton, in : Laqueur : Fascism, op. cit., p. 98. For more litterature see, D. Moore : Church and State in Italy 1850 - 1960, Oxford 1960; D. A. Binchy : Church and State in Fascist Italy, 2nd ed., Oxford 1970; R. A. Webster : Christian Democracy in Italy 1860 - 1960, London 61.

56. Juan Linz : «Some Notes Toward a Comparative Study of Fascism..», in : Laqueur : Fascism, op. cit., p. 33.

57. Ibid., p. 32.

58. Ibid., pp. 32, 33, 72.

٥٩ — سورة البقرة ، ٣٠ .

٦٠ — سورة الحجرات ، ١٣ .

٦١ — سورة الاسراء ، ٧٠ .

٦٢ — سورة التين ، ٤ .

٦٣ — سورة النحل ، ١٢٥ .

٦٤ — سورة البقرة ، ١٩٠ — ١٩٤ .

٦٥ — سورة المؤمنون ، ١١٥ .

٦٦ — سورة الحشر ، ٢٠ .

٦٧ — محمد محمود ربيع : « موقع العقيدة من الفكر الصهيونى » ، مرجع سابق ص ٣٩ ، ٤٠ .

٦٨ سورة الاسراء ، ٨٥ .

٦٩ — سورة طه ١١٤ .

كتب أخرى للمؤلف

- النظرية السياسية لابن خلدون (بالانجليزية) • دار نشر بريل • لايدن هولندا ١٩٦٧

- أزمة الفكر الصهيونى المعاصر • دار النهضة العربية • القـــــاهرة ١٩٧١

- مشاكل الحكم فى افريقيا • دار مكتبة الفكر • طرابلس وبيروت ١٩٧٤

- مناهج البحث فى السياسة • مطبعة جامعة بغداد • بغداد ١٩٧٨

- الأيديولوجيات السياسية المعاصرة (قضايا ونماذج) • كاظمة للنشر والتوزيع • الكويت ١٩٧٩

- النظرية السياســـية لابن خلدون (دراســـة مقارنة فى النظريات الاسلامية والفكر السياسى الاسلامى) • دار الهنـــــا بالقاهرة ١٩٨١

رقم الايداع ٢٨٧١ لسنة ١٩٨٥

الترقيم الدولى ٧ — ٥٥ . — ٣٧٣ — ٩٧٧

مطابع سجل العرب